الندوة

العدد الخامس – أيلول 2023

نشـــرة إلكترونية فصلية تصدر عن الندوة الثقافية المركزية

طَريقُ الأَدَبِ السّوريّ

إنّ الأَدَبَ الذي لَهُ قِيمَةٌ في حَياةِ الأمة، وفي العَالَم، هُوَ الأَدَبُ الَّذي يُعنى بِقَضـــايا الفِكرِ والشُّـــعُورِ الكبرى، في نِظْرَةٍ إلى الـــحَياةِ والكَونِ والفَنِّ عـالِيَـةٍ أصْـلِيَّـةٍ، مُمْتازَةٍ، لها خَصائِصُ شَخْصِيَّتِها. فإذا نَشَـأَتْ هَذِهِ النَّظرَةُ الـــجَدِيدَةُ إلى الـــحَياةِ والكَونِ والفَنِّ أوْجَدَتْ فَهْماً جَدِيداً لِلقَضـــايا الإنْســـانِيَّة، كَقَضِيَّةِ الفَرْدِ والـــمُجْتَمَعِ وَقَضِيَّةِ الـــحُرِّيَّةِ وَقَضِيَّةِ الواجِبِ وَقَضِيَّةِ النِّظامِ وَقَضِيَّةِ القُوَّةِ وَقَضِيَّةِ الـحَقِّ وَغَيرِها. وَبَعضُ هَذِهِ القَضـــايا يَكُونُ قَدِيـــمًا فَيَتَجَدَّدُ بِحُصُـــولِ النَّظْرَةِ الـــجَدِيدَةِ إلى الـــحَياةِ وَبَعضُها يَنْشَأُ بِنُشُوءِ هَذِهِ النَّظرَة. فالحُرِّيَّةُ، مَثَلًا، كانَتْ تُفْهَمُ قَبْلَ النَّظْرَةِ الجَدِيدَةِ إلى الحَياةِ في أَشْـــكالٍ واعْتِقاداتٍ لا وُضُـــوحَ ولا صَـــلاحَ لها في النَّظْرَةِ الـــجَديدَة. فلمَّا جاءتِ النَّظْرَةُ الـــجَديدَةُ إلى الـــحَياةِ والكَونِ والفَن، التي نَشَـــأَتْ بِسَـــبَبِها الـــحَرَكَةُ السُّـــورِيَّةُ القَومِيَّةُ الاجْتِماعِيَّة، وَقَرَنَتِ الـحُرِّيَّةَ بِالواجِبِ والنِّظامِ والقُوَّة، وفَصَّلَتِ الحُرِّيَّةَ ضِـــمْنَ المُجْتَمَعِ وَتُجاهَ الـــمُجْتَمَعاتِ الأُخرى هَذا التَّفْصِـــيلَ الواضِـــحَ، الظَّاهِرَ في تَعالِيمِها، نَشَـــأَتْ قَضِـــيَّةٌ جَدِيدَةٌ لِلْحُرِّيَّةِ ذاتُ عَناصِرَ جَدِيدَةٍ يُبَيِّنُها فَهْمٌ جَدِيدٌ يَتَناوَلُ أَشْكالَ الـــحَياةِ كَما تَراها النَّهْضَةُ القَومِيَّةُ الاجْتِماعِيَّة، وَفِعلَ الـحُرِّيَّةِ وشَأنَها ضِمْنَ هَذِهِ الأَشْكال.

سعاده، الزوبعة، بوينُس آيرس، العام الثالث، العدد 57(1/12/1942)

في هذا العدد

- ✓ كلمة رئيس الندوة الثقافية
- ✓ سعاده هو سلاحنا المعرفي – **أحمد أصفهاني**
- ✓ سعاده والجيوبولتيك – **وليد زيتوني**
- ✓ رحلة في حقول الشاعر جوزف حرب – **رامز الحوراني**
- ✓ يحق للسوريين أن يفتخروا – **إدمون ملحم**
- ✓ العولمة وموقف سعاده والحركة القومية – **شحادي الغاوي**
- ✓ مفهوم سعادة للدولة القومية الاجتماعية – **يوسف كفروني**
- ✓ مطالعة حول رواية الدكتورة فاتن المر – **رامز حوراني**
- ✓ النزعة الفردية – **حيدر حاج اسماعيل**
- ✓ مقاربة أولية في كتابة تاريخ الحزب – **إبراهيم مهنا**
- ✓ فلسفة التاريخ عند سعاده – **جهاد نصري العقل**
- ✓ مركزية العقل في فلسفة سعاده – **علي حمية**
- ✓ مذكرات الأمين عبد الوهاب بعّاج – **أحمد أصفهاني**
- ✓ الحوريون "المجهولون" وسطاء... – **توما توما**
- ✓ تاريخ سورية بين الجناحين الرافدي والشامي – **بشار خليف**
- ✓ أنطون سعاده والمقاربة السوسيولوجية – **منير مهنا**
- ✓

على هُـدى سـعاده

الانتساب والانتماء

بقلم رئيس الندوة الثقافية المركزية
الأمين الدكتور إدمون ملحم

الانتساب والانتماء كلمتان متشابهتان من حيث استعمالهما المتداخل ولكنهما يختلفان جوهرياً في المعنى.

الانْتِسابُ: (جذر الكلمة: نسب) ويعني الاِتِّصالُ بين شَيْئَيْنِ، فيُقالُ: انْتَسَبَ فُلانٌ إلى أَبيهِ، يَنْتَسِبُ، انْتِساباً، أي: اتَّصَلَ بِهِ. وأَصْلُ الكَلِمَةِ مِن النِّسْبَةِ والنَّسَبِ، وهي: القَرابَةُ، ويأْتي الاِنْتِسابُ بِمعنى: ذِكْر الشَّخْصِ نَسَبَهُ، أيْ: قَرابَتَهُ، ويكون الاِنْتِسابُ إلى الآباءِ، أو إلى قبيلة أو بلد ما، كما يكون إلى صنعة ما. ومِن مَعانِي الانتِسابُ أيضاً: الاِلْتِحاقُ والاِنْضِمامُ والاِنْتِماءُ. وفي معجم المعاني الجامع، نجد المعاني التالية:

ناسَبَ (فعل)

نَاسَبَ الرَّجُلَ: شَارَكَهُ فِي النَّسَبِ وَصَاهَرَهُ، كَانَ قَرِيبَهُ

ناسب عائلةً معروفة: صاهرها؛ تَزَوَّج منها

ناسب بين الشَّيئين: وفّق ونسَّق

اِنتَسَب: (فعل)

انتســـبَ /انتســـبَ إلى ينتســـب، انتســـابًا، فهو مُنتسِـــب، والمفعول مُنتسَب إليه

يَنْتَسِبُ إلى أُسْرَةٍ شَرِيفَةٍ: يَرْجِعُ نَسَبُهُ اِنْتَسَبَ إلى قَوْمٍ لَيْسَ مِنْهُمْ

اِنْتَسَبَ الرَّجُلُ إلى الجَمْعِيَّةِ: اِنْتَمَى يَنْتَسِبُ إلى حِزْبٍ سِياسِيٍّ

اِنْتَسَبَ إلى جامِعَةٍ: اِنْضَمَّ

انْتَسَبَ: ذكر نسبَه

انْتَسَبَ إلى فلان: اعتزَى

الانتماء: اِنتِماء: (اسم – مصدر اِنْتَمَى)

عُرِفَ بانْتِمائِهِ إلى قَبيلَةٍ كَذَا: بانْتِسابِهِ إلَيْهَا

نَما: (فعل)

– نما يَنمو، انْمُ، نماءً ونُمُوًّا، فهو نامٍ.

– نَمَتِ السَّنَابِلُ: اِرْتَفَعَتْ كَبُرَتْ

في المعنى، الانتماء هو الارتباط الحقيقي بشيء ما أو أمر ما، يتعلق الشخص به (كتعلق الإنسان بأسرته أو بوطنه أو بالمجتمع الذي نشأ فيه) ويتملكه مشاعر داخلية عاطفية ووجدانية تدفعه إلى المحافظة على هذا الارتباط والدفاع عنه. ومن ناحية أخرى، يعرف الانتماء أنه الارتفاع بشيء ما، والنمو به وشعور الاعتزاز بهذا الشيء.

باختصار، الانتماء هو حالة شعور عند الإنسان تدفعه إلى الانضمام إلى جماعة ما، مثلاً، فيترجم هذا الشعور على أرض الواقع من خلال التزامه بالجماعة ومبادئها وقوانينها وإخلاصه لها واستعداده النفسي لأن يسلك كل السلوكيات الإيجابية التي تجعل منه شخصاً منتمياً بالكلية ومتعاوناً ووفياً. والانتماء يعلّم الإنسان الالتزام والولاء والطاعة والقرار المسؤول والثقة بالنفس والتفكير بأهمية أن يكون جزءاً من المنظومة ومخلصاً لها ومشاركاً في أعمالها ونشاطاتها.

عودة إلى الرئيسية

ويُعدُّ الانتماء أحد العوامل الهامة التي تقوي أواصر العلاقات الاجتماعية وتساهم في انتشار الأخلاق والقيم السامية وفي بناء المجتمعات ونموها. فانتماء الشخص لمجتمعه، مثلاً، سيدفعه للعمل بكامل طاقته من أجل نهضة مجتمعه وتقدمه.

ويُشكِّلُ الانتماء قيمة عظيمة في حياة الأفراد والشعوب على حد سواء. فالإنسان مدفوع دائماً إلى أن ينتمي إلى فكرة أو عقيدة أو رمز أو مؤسسة اجتماعية، أو كل هذا معا، لأن هذا الوضع يجعله يشعر بأن لحياته فائدة، ولوجوده قيمة، ويحميه من الضياع والاغتراب.

العضوية في الحزب السوري القومي الاجتماعي:

حصول العضوية في الحزب السوري القومي الاجتماعي لا يكون بالانتساب إلى الحزب، لأن الانتساب يعني النسب والقرابة، بل يحصل بالانتماء طوعاً وإرادياً بناء على اقتناع تام بالعقيدة القومية الاجتماعية والإيمان بها. إنه انتماء شعوري، وجداني، عقلاني، نابع من وعي وإدراك لحقيقة المبادئ القومية الاجتماعية، وناتج عن اقتناع بالعقيدة حصل في عقل الفرد ووجدانه، لذلك قرر هذا الفرد بملء حريته وإرادته الواعية وثقته بنفسه أن يربط مصيره في مصير العقيدة وانتصارها. يقول سعاده: "إنّ الانتماء إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي دليل على ممارسة الديمكراتية. والزعيم ليس دكتاتورا بل هو زعيم أكبر وأعظم مؤسسة شُيدت على التطوّع الحرّ الناتج عن عميق الاقتناع الشخصيّ ونضوج الوعي".

وفي الانتماء اليقيني إلى الحزب، يحصل التأكيد بالولاء الكلي للعقيدة والنظام القوميين الاجتماعيين وللزعيم– المعلم والقدوة، ولا يجوز للقومي الاجتماعي عندئذ أن يعمل بولاءين: ولاء للعقيدة السورية القومية الاجتماعية والنظام السوري القومي الاجتماعي، وولاء لأهداف مؤسسة أخرى أو تنظيم آخر، فإنّ "كل حق وكل خير وكل جمال إنساني يجدها الإنسان في مبادئ النهضة السورية القومية الاجتماعية وتعاليمها السامية فلا يحتاج إلى غيرها."[1] وكنتيجة لهذا الانتماء اليقيني، يتولّد الشعور بالواجب القومي والمسؤولية الجديدة بصورة جدّية واضحة. وقد جاء في نص القسم الذي يتلوه العضو: "أنا... أقسم بشرفي وحقيقتي ومعتقدي على أنني أنتمي إلى الحزب السوري القومي بكل إخلاص وكل عزيمة صادقة وأن أتخذ مبادئه القومية إيماناً لي ولعائلتي وشعاراً لبيتي.."، وبهذا الإعلان يصبح المؤمن المنتمي إلى الحزب قومياً اجتماعياً بالفعل وعضواً في الدولة القومية عاملاً بالإيمان القومي وساعياً لتكون كامل عائلته ناشئة على هذا الإيمان.

والانتماء إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي لا يكون انتماءً آنياً ومحدوداً بمصلحة فردية أو منافع خصوصية. فهو لا يتم على أساس ارتباط بين شخصين أو إرادتين لتحقيق مصالح فردية معينة، حتى إذا تحققت هذه المصالح أو تضاربت، تفرقا وانصرف كل واحد لغاياته وشؤونه، بل هو ارتباط دائم وانخراط صراعي مستمر من أجل قضية كلية تساوي وجودنا، هي قضية حياة الأمة ومصيرها ومطالبها العليا، ومن أجل تحقيق "أمر خطير" هو "إنشاء دولتنا وليكون كل واحد منا عضو دولته المستقلة"[2]. إنه قرار عقلاني – إرادي حرّ، والتزام 3أخلاقي – إيماني بالانتماء إلى الحياة الجديدة، إلى المجتمع الجديد والولاء له والانصهار به.. وهكذا فإننا "حين ندخل الحزب السوري القومي الاجتماعي ندخل في حياة جديدة، لا نريد أن نتخلى عنها."[3] وهذا الانتماء الإرادي، اليقيني، يتولّد عنه شعور جديد يتطلب من العضو "أن يضيف إلى شعوره بشخصيّته شعوره بشخصيّة جماعته، أمّته، وأن يزيد على إحساسه بحاجاته إحساسه بحاجات مجتمعه وأن يجمع إلى فهمه نفسه فهمه نفسيّة متّحده الاجتماعيّ وأن يربط مصالحه بمصالح قومه وأن يشعر مع ابن مجتمعه ويهتمّ به ويودّ خيره، كما يودّ الخير لنفسه."[4]

[1] سعادة، الأعمال الكاملة، المجلد الثامن 1948 – 1949، ملحق رقم 11، بلاغ الزعيم بشأن الحركة الماسونية في 10 مايو (أيار) 1949.
[2] سعاده، المحاضرات العشر، ص 31.
[3] سعادة في أول آذار، ص 37.
[4] سعادة، نشوء الأمم، ص 13-14.

الانتساب قد يكون أمراً مفروضاً بمعنى أنه يتوجب على الفرد الانتساب إلى مؤسسة أو جماعة للحصول على خدمة ما أو منفعة خصوصية، أما الانتماء فهو فعل عاقل نابع عن إرادة واعية وإعلان واضح عن إيمان وعزم والتزام بالتعاليم القومية الاجتماعية ونظام الحزب وبالدخول في حياة جديدة جميلة عنوانها الحرية والواجب والنظام والقوة.

الانتماء هو الارتقاء

الانتماء إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي ليس مجرد انتقال من حالة إلى حالة أخرى قد تكون مشابهة، بل هو نمو وارتقاء إلى حالة أفضل منها بفضل المبادئ الجديدة. في حالة الانتقال العادي، ننتقل من حالة الفوضى إلى حالة فوضى مشابهة، وننتقل من حالة التعصب المذهبي إلى حالة التعصب الطائفي أو العكس. فهذا الانتقال يمكن وصفه بالانتقال الأفقي، أي انتقال إلى حالة مشابهة، ويمكن وصفه أيضًا بالانتقال الانحداري، أي انتقال من حالة سيئة إلى حالة أسوأ: هي حالة اليأس والهلاك.

أما الارتقاء، فهو ارتقاء عمودي من حالة سيئة إلى حالة أفضل منها. مثلاً:

الارتقاء من الجهل والتخلف إلى العلم والمعرفة، من الفوضى إلى النظام ومن المثالب الانحطاطية إلى المناقب الجميلة.

الارتقاء من الولاءات الضيقة، كالعائلية والعشائرية والطائفية والكيانية، إلى الولاء القومي الجامع الذي لا غنى عنه لنهوض الأمة وتحقيق خير المجتمع القومي.

الارتقاء من حالة التشرذم والقطعانية إلى حالة الوحدة والجماعة الواعية المنظمة.

الارتقاء من حالة الضلال وفساد الحقيقة وانتشار القبائح والرذائل إلى حالة الهدى وانتصار الحقيقة والسمو إلى العُلى.

الارتقاء من حالة الخوف وذهاب الرجولة والتراجع وانعدام الثقة بالنفس واليأس الكلي. إلى حالة الرجولة والبطولة والأمل والعزائم والثقة بالنفس والجرأة والشجاعة والمروءة والإقدام.

الارتقاء من حالة ينتشر فيها الكذب والرياء والنفاق إلى حالة أفضل يسود فيها الوضوح والصراحة والصدق والحق والخير والجمال.

إذا، الانتماء إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي يعني النمو بعقلية أخلاقية جديدة تعبّر عن إرادة الحياة والخير الأسمى للمجتمع ويعني الارتقاء إلى سمو المناقب وغناها. يقول سعاده: "نحن لنا أخلاقنا ولنا مناقبنا التي ترتفع بنا إلى أعلى درجات السمو"[5]. أما الأخلاق الرجعية السائدة في المجتمع، فتسير انحداراً إلى حضيض المثالب النفسية التي تقتل العزائم الصحيحة والمطامح النبيلة والرغبات السامية في الشعب. وأخيراً، الانتماء إلى الحزب هو فعل التزام أخلاقي بمزاولة المناقب الجديدة التي يجب أن تسيطر على جميع أعمال القوميين الاجتماعيين وأفكارهم فتنتزع من صدورهم القلوب الفاسدة وتضع لهم في مكانها "قلوباً جديدة تخفق بالإيمان والثقة والمحبة وفعل الواجب والتضحية."[6]

هل هذا الكلام عن الانتماء نراه فعلاً في صفوف الحزب السوري القومي الاجتماعي أم أنه كلام طوباوي؟

إن المنطلقات والثوابت التي ذكرناها، حول الانتماء وكيف يجب أن يكون، لا تعني أنها لم تتعرض للانتهاك في سياق المسيرة الحزبية. بل يعني أنها يجب أن تبقى نُصبَ أعيننا مهما اعترى تطبيقها من الشوائب.

إن المنتمي إلى الحزب، بعد اقتناع وإيمان بالعقيدة القومية الاجتماعية الواضحة، بكونها عقيدة نهضة الأمة ومصالحها، يجب أن يكون صادقاً مع نفسه ومع الآخرين، وفياً لقسمه وملتزماً بقوانين الحزب ونظامه، ومشاركاً بدون تردد بنشاطاته ومهامّه. إن منطلقات وثوابت الانتماء تتعرّض للانتهاك في حالات تسيطر فيها الأنانيات العمياء

[5] أنطون سعادة، الأعمال الكاملة، المجلد السابع 1944- 1947، خطاب الزعيم في بزبدين.

[6] إلى مديرية خوخوي، صدر عن مكتب الزعيم، 1946/2/13.

عودة إلى الرئيسية

على النفوس فيتزعزع الإيمان ويضعف الوجدان وتنعدم الثقة فيتهرّب العضو من المسؤوليات ويرتدُّ عن الأمور العالية ويتخلى عن المسلكية الأخلاقية ولا يتردد عن خرق النظام مفضلاً اتّباع أهوائه ولو اضطر به الأمر لأن ينكث بعهده ويحنث بيمينه لأن همه الدائم هو إشباع أنانيته وتحقيق أغراضه الخصوصية. لذلك يؤكد سعاده:

إنّ داء نقض العهد وخفر الذمة والحنث باليمين هو من أروع الأدواء التي كشفت عنها مجهودات التنظيم السوري القومي الاجتماعي في الجيل السوري. فإن السهولة التي ينقلب بها غير واحد من الناس على يمينه وينقض بيعته، لأتفه الأسباب أحياناً، وأحياناً لدى أول الاصطدامات بين النزعة الفردية ومقتضيات النظام الإداري والعملي، لهي من الظواهر المخيفة المرعبة، التي تهدد كل محاولة من محاولات المجهود العام المنظم لبلوغ بعض الأهداف القريبة أو البعيدة. وإنّ أقلّ نتيجة عامة من نتائج هذه الظاهرة السيئة هي: فقد الثقة بصحة العزائم وضياع الأمل في الإرادة القومية العامة[7].

صوت سعاده

كل سوري ذكراً كان أم أنثى، يحق له دخول الحزب السوري القومي الاجتماعي على أن تتوفر فيه الشروط الآتية:

أ – أن يكون قد بلغ السادسة عشرة من عمره.

ب – أن لا يكون قد تجاوز الأربعين من عمره إلا بإذن خاص.

ج – أن لا يكون مجرماً ضد المجتمع أو ضد الأمة.

د – أن يدين بالقومية السورية الاجتماعية ويعتنق مبادئ الحزب السوري القومي الاجتماعي ونظامه.

أنا ..... أقسم بشرفي وحقيقتي ومعتقدي على أنني أنتمي إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي بكل إخلاص وكل عزيمة صادقة وأن أتخذ مبادئه القومية الاجتماعية إيماناً لي ولعائلتي وشعاراً لبيتي، وأن أحتفظ بأسراره فلا أبوح بها لا بالقول ولا بالكتابة ولا بالرسم ولا بالحفر ولا بأية طريقة أو وسيلة أخرى لا تطوعاً ولا تحت أي نوع من أنواع الضغط، وأن أحفظ قوانينه ونظاماته وأخضع لها، وأن أحترم قراراته وأطيعها، وأن أنفذ جميع ما يعهد به إليّ بكل أمانة ودقة، وأن أسهر على مصلحته وأؤيد زعيمه وسلطته، وأن لا أخون الحزب ولا أي فرع من فروعه ولا أفراده ولا واحداً منهم، وأن أقدم كل مساعدة أتمكن منها إلى أي عضو عامل من أعضاء الحزب متى كان محتاجاً إليها، وأن أفعل واجباتي نحو الحزب بالضبط .على كل هذا أقسم أنا.....

[7] دروس قومية اجتماعية – اليمين، الزوبعة، بيونس آيرس، العدد 65، 1943/9/1.

عودة إلى الرئيسية

رأي ثقافي

سعاده هو سلاحنا المعرفي في مواجهة التحديات المعاصرة

بقلم الأمين أحمد أصفهاني

يُجمع القوميون الاجتماعيون والمواطنون على مختلف مشاربهم أن الأمة السورية تعيش حالياً واحدة من أسوأ مراحلها، أمناً وسياسة واقتصاداً ومناقب. وهم يقدّمون الدليل تلو الدليل كمؤشر إلى ما يقولون. ولا خلاف قط في هذه المسألة لأن الوقائع لا تكذب. لكن الإشكالية تكمن في التعميم الذي يتجاهل ظروف الزمان والمكان، فلا تصدر الأحكام نتيجة مقاربة دقيقة لأوضاع المجتمع السوري ماضياً وحاضراً. وهذا يعني أن التفكير بآليات الخروج من "زمن الانحطاط" هذا سيكون قاصراً عن القيام بدوره الفاعل.

ونلاحظ كذلك أن هناك مقاربات متضاربة في تحديد خلفيات العوامل التي أوصلت أمتنا إلى ما هي فيه حالياً. ويطغى على الغالبية العظمى منها الكلام التوصيفي، بحيث تغيب الفوارق الزمنية بين ما كانت عليه الأمة الخارجة من نير العبودية العثمانية مطلع القرن العشرين وبين ما وصلت إليه خلال العقدين الأولين من القرن الحادي والعشرين. وانطلاقاً من منهجيتنا القومية الاجتماعية، نحن نرى أن دراسة كيفية مواجهة سعاده للمعضلات القومية في عصره ستكشف لنا عن وسائل عمل مؤكدة. ذلك أن أخطر ما يمكن أن نرتكبه بحق أمتنا هو أن يتحول الحديث عن الصعوبات القومية إلى نشر "ثقافة" اليأس والإحباط.

أنشأ سعاده النهضة القومية الاجتماعية بعد درس اجتماعي لواقع الأمة السورية بُعيد الحرب العالمية الأولى. يقول في رسالته من السجن إلى المحامي حميد فرنجية بتاريخ 10 كانون الأول 1935 "فيما دفعني إلى إنشاء الحزب السوري القومي": "كنت حدثاً عندما نشبت الحرب الكبرى سنة 1914 ولكن كنت قد بدأت أشعر وأدرك. وكان أول ما تبادر إلى ذهني، وقد شاهدت ما شاهدت، وشعرت بما شعرت، وذقت ما ذقت، مما مُنِيَ به شعبي، هذا السؤال: ما الذي جلب على شعبي هذا الويل؟ ومنذ وضعت الحرب أوزارها أخذْتُ أبحث عن جواب لهذا السؤال وحلّ للمعضلة السياسية المزمنة التي تدفع شعبي من ضيق إلى ضيق فلا تنقذه من دب إلا لتوقعه في جب."(1) هذا كان شعور الفتى الخارج من كارثة الحرب العالمية، والمتوجه إلى العالم الجديد حاملاً في وجدانه وعقله شؤون سورية وشجونها.

لكن ما يهمنا في بحثنا هذا هو: كيف نظر سعاده إلى وضع الأمة عندما عاد إليها سنة 1930 لينطلق في عمله النهضوي الشامل؟

نقرأ في بعض مقالاته اللاحقة، وفي مرويات عدد من رفقاء الرعيل الأول، ملامح عن الصعوبات والتحديات التي كان على سعاده أن يتغلب عليها **منفرداً** في المرحلة الأولى. ولعل خطابه بمناسبة الأول من آذار سنة 1938 يُظهر لنا الجهد الذي بذله في التأسيس، إضافة إلى معاناته من حالة الانحطاط والجهل المسيطرة على جموع السوريين. يقول بعد تقديم عرض تاريخي لأوضاع الأمة السورية منذ الفتح الروماني: "كان التضعضع القومي عاماً وكاد يقضي على شخصية الأمة قضاء مبرماً، فلم يبق لها سوى بعض المؤسسات كالمراجع الدينية والمعابد والسلطة الإقطاعية ونظام العشيرة أو رابطة العائلة الدموية. ثم آذنت السلطنة العثمانية بالتفكك والانحلال وأخذت عوامل الشخصية السورية تختلج اختلاجات الحياة وتتململ، ووجدت في تضارب مصالح الدول الكبرى ومصالح الدولة العثمانية فرصة تساعدها على التملص من قبضة تركية. ولكن المعنويات كانت لا تزال صرعى، وظلمة الخمول مخيمة على الشعب. فعاد الأمر إلى

المؤسسات القديمة وبعض الأفراد الذين بنوا نظرياتهم على تلك المؤسسات واستمدوا فلسفتهم السياسية منها. فكانت النتيجة تخبطاً اختلطت فيه السياسة بالدين والاجتماع بالسياسة".

ويضيف: "أما الظروف الروحية النفسية المتولدة من هذه الحوادث ومن الظروف السياسية الاقتصادية المتأتية عنها فهي ظروف انحطاط في المناقب عز نظيره. فإن فقد الثقة بالنفس وبقوى الأمة وإمكانياتها السياسية والاقتصادية، والاستسلام للخنوع، أنشأ طائفة من المأجورين للإرادات الأجنبية القريبة والبعيدة يغذون الأفكار بسموم فقدان الثقة بمستقبل الأمة والتسليم للأعمال الخارجية والحالة الراهنة. فإذا النفسية العامة في الأمة نفسية خوف وجبن وتهيّب وتهرّب وترجرج في المناقب والأخلاق. ومن صفات هذه النفسية العامة الخداع والكذب والرياء والهزؤ والسخرية والاحتيال والنميمة والوشاية والخيانة وبلوغ الأغراض الأنانية، ولو كان عن طريق الضرر بالقريب وعضو المجتمع". (2)

كان خطاب الأول من آذار 1938 بمثابة رسالة وداع وجهها الزعيم إلى القوميين الاجتماعيين قبل بدء رحلته إلى دول الاغتراب، وقد أراده أيضاً تقييماً للمرحلة السابقة وعرضاً تاريخياً لعملية التأسيس في ظل تلك "الحالة السياسية المشؤومة" التي كان عليه مواجهتها عند عودته إلى الوطن. ويقول: "هذه هي الظروف السياسية والروحية التي وجدتني محاطاً بها عندما قررت وجوب إنقاذ الأمة بإنشاء الحزب السوري القومي والسعي لاكتشاف العناصر السليمة الضالة في فوضى هذه الظروف وتنظيمها في الحزب."(3) وفي رسالة إلى فخري معلوف رئيس المجلس الأعلى في الحزب بتاريخ 9 تموز 1938، يعود سعاده إلى تبيان معاناة التأسيس: "فحاولت جهدي في الوقت الذي سمحت لي به الظروف، أن أوقظ الأمة وأنبهها للأخطار المداهمة. ولكن المادية القاتلة المسيطرة، ووجود صحافة واسعة النطاق تخدم مصالح الأجانب الاستعماريين وتندفع في خدمتها عند أقل إشارة، وانعدام حرية القول والاجتماع، وقيام إدارة تجرّد كل واحد فيها من أي شعور حقيقي بالقومية أو محبة الوطن، جعلت مجهودي يضيع قسم كبير من مفعوله السريع ويقتصر على قسم من القوميين الواعين". (4)

ومع أن سعاده نجح في تخطي صعوبات التأسيس، إلا أن "روحية الخنوع العتيقة" . على حد تعبيره . ظلت تعرقل مخططاته القومية. ففي ندائه إلى السوريين (1 حزيران 1940) بمناسبة اندلاع الحرب العالمية الثانية نراه يشير إلى عقبات الداخل: "فمن الداخل نفسية عهد الانحطاط الفاقدة الثقة بمواهب شعبها ومصير أمتها، المستسلمة لعوامل التفسخ والتفريق والتفكيك". (5) ولم تكن تجربة سعاده في مغتربه القسري بالأرجنتين أقل صعوبة وأذيّة مما وجده في الوطن سنة 1930. يقول في رسالة إلى يعقوب ناصيف بتاريخ 25 كانون الأول سنة 1945: "وقد صرت أخجل من نفسي بينهم، إذ لا اعتبار عندهم لزعامة ولا لتوجيهات قيادة. وكلما مرّت الأيام أزداد يقيناً أنه لا اعتماد لي إلا على نفسي. ولقد قضيت وسط النزالة السورية في هذه البلاد نحو سبع سنوات، فيا لضياع ما خطبت وما كتبت وما حدثت وما نفخت وما جمعت. كله كان عبثاً. ولولا أملي بما أنشأت في الوطن وبأفراد قلائل واعين في المغترب لصَمَتُّ كل الصمت وأعفيت نفسي من هذا العناء الباطل". (6)

وبعد عشر سنوات على خطاب الأول من آذار 1938، يُخاطب سعاده مؤتمر المدرّسين القوميين الاجتماعيين بتاريخ 12 تموز 1948 متناولاً مرّة أخرى ظروف الأمة في تلك المرحلة التأسيسية: "وإذا نظرنا في مهمة الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي يحمل رسالة النهضة السورية القومية الاجتماعية وجدنا أنها أشق مهمة ظهرت في تاريخ أية أمة من الأمم. فليس، ولم يك قط، للفوضى التي تتخبط فيها الأمة السورية مثيل، ولم يبلغ الفساد في أمة من الأمم، في أي وقت من الأوقات، مبلغه في أمتنا إلى هذا الوقت". ويضيف: "إذا حسبنا ما كان لنا نحن من قواعد للنهوض والبناء بالنسبة لما كان عند غيرنا وجدنا أننا ابتدأنا من درجة الصفر. فقوميتنا كانت مجهولة لنا وأصولها تفككت وتبعثرت من قرون بعيدة ولم أجد، يوم ابتدأت تخطيطي البنائي، مؤسسة واحدة في أمتنا صالحة للارتكاز في عمل النهوض والبناء القوميين الاجتماعيين. كان عليَّ أن أضع قواعد الحياة القومية وفلسفة الحياة القومية الاجتماعية، وأن أشرّع للمنظمة القومية الاجتماعية التي أعلنتها سنة 1935 دولة الشعب السوري الاجتماعية المستقلة الحقوق والواجبات العامة وأن أؤسس المؤسسات الجديدة الصالحة للحياة الجديدة التي نريدها ولمثلها العليا". (7)

إذا ضربنا صفحاً عن المتغيرات التقنية الهائلة التي أصابت العالم، وتجاوزنا عن بعض الخصوصيات القومية لعالمنا العربي، فإن أمتنا السورية تقف اليوم أمام التحديات نفسها التي تعامل معها سعاده قبل

حوالي القرن: ضياع الهوية القومية، التشرذم الديني والعرقي، الاحتلالات الأجنبية، التدخل الإقليمي، الأزمات البيئية، تدهور المناقب، النزعات الفردية، الانحطاط الثقافي والفكري، إعلام مرتزق ومرتهن... وغيرها. إن "التخبط" الذي عاينه سعاده قبل مباشرته عملية تأسيس الحزب ما زال مهيمناً على واقعنا السياسي والاجتماعي والاقتصادي حتى اللحظة، من دون أن نتجاهل الانجازات المحدودة في بعض المجالات.

مع ذلك، وعلى الرغم من الصور القاتمة المستمرة منذ مطلع القرن الماضي إلى اليوم، فنحن نعتقد بأننا في موقع أفضل من الموقع الذي بدأ منه سعاده سنة 1932. لقد انطلق من الصفر، كما يقول. لا شيء قبله يُمكن أن يُبنى عليه عملٌ نهضويٌ سوى بعض اختلاجات أولية ناقصة. العثمانيون دمروا البنية الاجتماعية على مدى أربعة قرون فأوجدوا تشويهات مناقبية فادحة. ثم جاء المستعمرون الفرنسيون والإنكليز ليكملوا التدمير من خلال تقسيم وحدة سورية الجغرافية وفق خطوط تصادم مذهبية ودينية وعرقية.

سعاده أدرك باكراً أن الحلول السياسية لن تنقذ الأمة، كونها علاجات مؤقتة بطبيعتها. لذلك ذهب مباشرة إلى جوهر المعضلة القومية: من نحن؟ وعندما توصل إلى جواب مقنع بعد درس وتمحيص وتجارب، قام ببناء عمارته الفكرية. الأمة ليست بحاجة إلى حلول موضعية، وإنما خلاصها يكمن في إطلاق نهضة قومية اجتماعية شاملة. نهضة توقف المسار الانحداري المريع، وفي الوقت نفسه تطوّر المسار التصاعدي الراقي: كلما بلغنا قمة تكشفت أمامنا قمم أعلى وأسمى. لقد أنجز سعاده في غضون عقدين من الزمن ما لم يستطعه أحد من السوريين خلال القرنين الماضيين على الأقل.

صحيح أننا نواجه ظروفاً صعبة للغاية شبيهة إلى حد كبير بتلك التي تحداها سعاده وانتصر عليها معرفياً. طبعاً توجد تمايزات شكلية ترتبط بعامل الزمن وبالحراك الاجتماعي. لكن هذا لا يضطرنا للرجوع إلى المربع الأول، إلى خانة الصفر. فسعاده أبان لنا معالم الطريق، وحدّد لنا الغاية، ووضع بين أيدينا أسلحة المعرفة والعلم والإيمان. وأكد لنا بأن المبادئ هي قواعد لانطلاق الفكر، وأن العقل هو الشرع الأعلى.

نحن لا نقلل من خطورة الظروف المحيطة بنا، ولا نستهين بالتهديدات التي تستهدف وجودنا القومي من جهات عديدة. هذا واقع لا ينكره إلا كل جاهل. لكننا الآن نملك إرثاً غنياً لم يكن متاحاً لسعاده عندما بدأ يعي ويحلل ويفكر بعد مآسي الحرب العالمية الأولى. لنا من سعاده حياته وفكره ومناقبه وزعامته واستشهاده. ولنا من وحي عطائه تاريخ حزبي وقومي صنعته تضحيات ودماء مئات الألوف من القوميين الاجتماعيين ومن غير القوميين. أدوات تجعلنا أكثر إيماناً بالأمة: "لهؤلاء أن يكفروا بها ولنا أن نؤمن بها، لهم أن ييأسوا من بعثها ولنا أن نثق بنهوضها، لهم أن يفروا من صفوفها إلى حيث تستر سهولة المعيشة جبنهم ولنا أن نثبت في صفوفها، إلى أن تنتصر القوة الفكرية على الضعف الفكري والحق على الباطل". (8) هذه هي أسلحتنا المعرفية لمواجهة التهديدات، وصد المخاطر، وبناء النهضة القومية الاجتماعية.

نحن نرفض أن نمشي "خطى كُتبت علينا". لقد اخترنا الدرب حتى لو كان شاقاً وطويلاً، وقررنا المضي قدماً: "في الصراع المميت بيننا وبين قوات التوحش، لا نشك في أن قوتنا الروحية المتمدنة العظيمة ستسحق التوحش وغدره ولؤمه سحقاً كاملاً"(9). العقيدة القومية الاجتماعية منهج للتفكير وللممارسة. وبقدر ما ترسّخ فينا القوة الروحية الضرورية للمواجهة والانتصار، بقدر ما هي سبيلنا إلى دراسة المستجدات القومية والاجتماعية حتى نتمكن من فهمها وبالتالي العمل على تغييرها.

هوامش:

1. الأعمال الكاملة. الجزء الثاني، صفحة 9.
2. الأعمال الكاملة. الجزء الثالث، صفحة 175.
3. المرجع السابق.
4. الأعمال الكاملة. الجزء التاسع، صفحة 48.
5. الأعمال الكاملة. الجزء الرابع، صفحة 49.
6. الأعمال الكاملة. الجزء العاشر، صفحة 511.
7. الأعمال الكاملة. الجزء الثامن، صفحة 226.
8. الأعمال الكاملة. الجزء الأول، صفحة 413.
9. قول لسعاده، تروسة الصفحة الأولى من "الزوبعة" العدد 67، تاريخ أول تشرين الأول 1943

سعاده والجيوبولتيك

الأمين وليد زيتوني*

يندر أن تجد في أمتنا والعالم العربي مشـــروعا جيوبولتيكيًا متكاملا باســـتثناء مشـــروع أنطون ســـعاده، وان وجد فتراه مبنيا على قاعدة عاطفية أو ايمانية بعيدا عن الأســس العلمية الصـــحيحة، وإنصـــافا للحقيقة لا بد من الإشـارة الى مشـروعين جاءا بعد سـعاده بسـنوات عديدة أحدهما في مصـر للدكتور جمال حمدان في كتابه "شـخصـية النيل"، والثاني في المغرب العربي للدكتور الشـــيخ علي عبد الرازق وان لم يكن هذا الأخير مشروعا متكاملا.

من المؤكد انه لم يرد في كتابات وأقوال أنطون ســـعاده أي ذكر واضـح لعلم الجيوبولتيك وبالتالي لم يستخدم هذا التعبير مطلقا، ليس لأن الزعيم لم يكن مطلعا على هذا العلم إنما لأســـباب أخرى تتعلق باســـتخدام النازية له في حروبها، والتنديد الواســـع له من قبل الدول المنتصـــرة بالحرب معتبرة إياه مســـؤولا مباشـــرا او أبا لنظرية المد الحيوي. ولم يعد هذا التعبير الى التداول بين النخب المثقفة إلا في ســـبعينات القرن الماضـــي مع إصـــدار "ايف لا كوســـت" لمجلته "هيرودوت" مترافقة مع الصـراع على منشـوريا بين الاتحاد السـوفياتي الســـابق والصـــين وبالتالي عاد النزاع على الأرض يأخذ منحى جيوبولتيكيا بين دولتين شيوعيتين.

صـــحيح أن ســـعاده لم يســـتخدم هذا التعبير بشـــكله المباشـــر، لكن المطلع على كتابه العلمي "نشـوء الأمم" يرى بين مسـتنداته والمراجع ذكرا واضـحا لرواد هذا العلم من "هاوســـهوفر" الى "ماكندر" الى "دولا بلانش" وغيرهم. بل أكثر من ذلك معارضـــة ســـعاده لأطروحاتهم فيما يتعلق بقلب العالم، والمناطق الحاكمة جغرافيا وهوامشها، وبقع الجذب الحضارية.

ورغم الأهمية الكبرى لكتابه "نشـــوء الأمم" ككتاب علمي صـــرف وأســـاس نظري لنشـــوء الأمم إلا ان المعوّل عليه كان كتابه الثاني المفقود أثناء الاعتقال وهو نشـوء الأمة السـورية. غير أنه من وجهة نظر قد تكون صـحيحة أن محاضـرات سعاده العشر والتي ألقاها بعد الاعتقال، جاءت لتســـد جزءا من هذا الفراغ من خلال شـــرحه المسـتفيض لمبادئ الحركة وان لم تكن بشـمولية ما طمح إليه الزعيم في كتابه الثاني. إلا ان مقتضـيات النضـال والظروف المحيطة التي عانها الزعيم دعته الى إيصـــال ما يمكن إيصـــاله لبلورة الأهداف وتبيان ما أمكن تبيانه من الخطوط العامة والعريضـــة لمشـــروعه الجيوبولتيكي.

فجوهر الجيوبولتيك يقوم على السـعي لقراءة الظواهر السـياسـية على أرض محـددة في بعـديهـا الانطولوجي والمعيـاري وفي الحـالتين الستاتيكة والدينامية في محاولة لتأمين مصالح وأغراض الدول.

على ضوء ما تقدم نتساءل هل القراءة الجيوبولتيكية هي قراءة نظرية بحـت او انهـا متـداخلـة ومـدفوعـة بقراءات أخرى؟ وهـل الظواهر الســـياســـية هي نتاج ذاتها أم أنها مبنية على ديناميات عملية في شؤون متعددة؟

عودة إلى الرئيسية

ان هذه الأسئلة تؤشر لماذا لجأ أنطون سعاده الى مجموعة كبيرة من العلوم لتدعيم مشـــروعه أن في الحالة الانطولوجية لشـــرح وتبيان الأســـباب التي أدت الى واقع الأمة الحالي من تشـــتت وتشـــرذم وانقســـامات وضـــياع الســـيادة وذهاب القوة والقدرة على الاســـتقلال الحقيقي. ام في الحالـة المعيـاريـة لمـا يجـب ان تكون عليـه الأمـة حســـب مشـــروعه المبني على حقائق الجغرافية والتاريخ والاجتماع والاقتصاد. ان هذا الفكر الموسوعي وضعه سعاده في خدمة القضية الســـورية القومية الاجتماعية مؤكدا انه منطلقات قابلة للتطوير والتحديث بما يتلاءم مع متطلبات العصر ومتطلبات رقي الأمة

طبعا قاربت في هذه المقالة علاقة أنطون ســـعاده مع الجيوبولتيك دون التطرق الى مشروع أنطون سعاده الجيوبولتيكي كي لا أكرر ما عالجته في كتابي "مقاربات جيوبولتيكية" حول هذا المشـــروع ببعده المعياري وشـــرحت في كتابي الثاني "ضـــياع الهوية القومية " كبعد انطولوجي مركزا على ســـايكس/ بيكو كنقطة مرجعية في التاريخ الحديث لأمتنا.

* الأمين وليد زيتوني عميد ركن متقاعد في الجيش اللبناني. حائز على دبلوم في العلوم السياسية. تسلّم العديد من المسؤوليات الحزبية، من بينها عميد دفاع ونائب رئيس. يشغل اليوم مسؤولية رئاسة المؤتمر القومي.

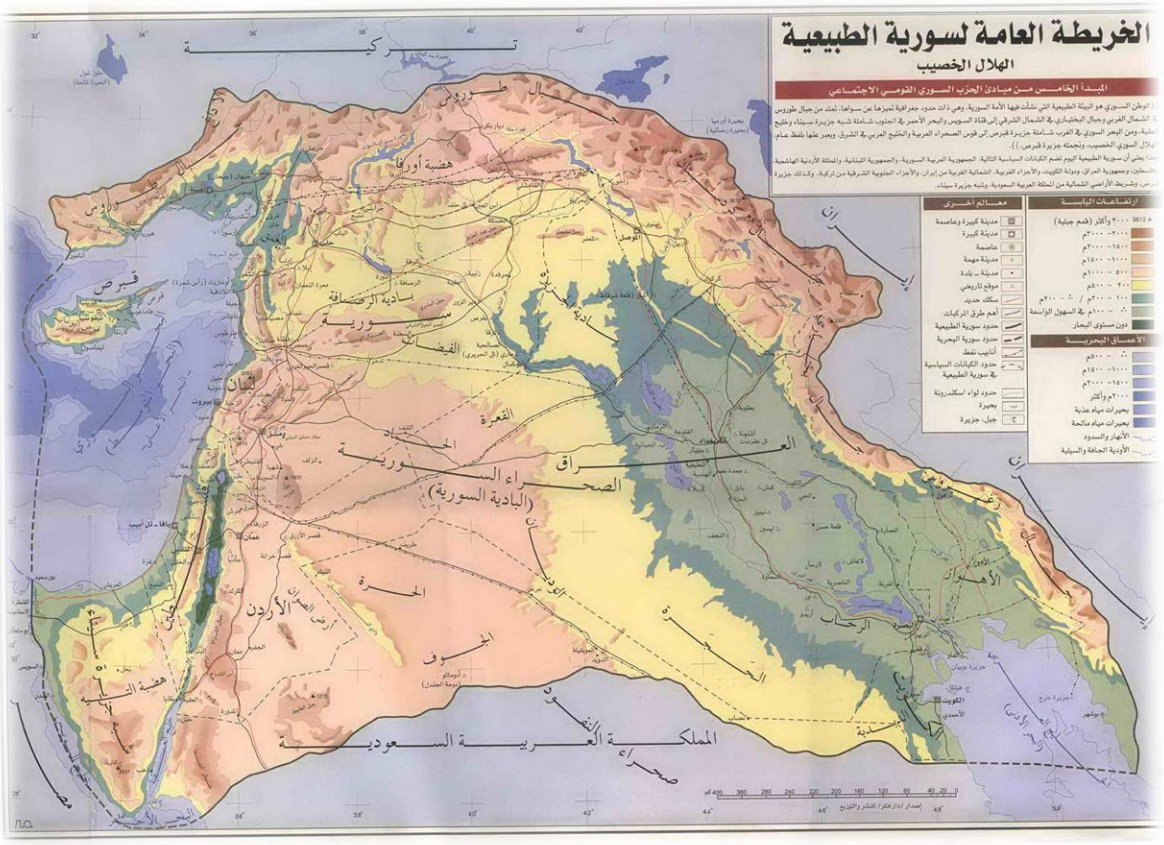

ما زال الرفيق الدكتور رامز الحوراني يُتحفنا بأبحاثه ودراساته النقدية، فقد صدر له في هذا الصيف، كتاب نقدي، بعنوان" سنابل الشعر- رحلة في حقول جوزف حرب". تناول فيه بإسهاب عميق، الأعمال الشعرية المنظومة بالفصحى للشاعر اللبناني الراحل جوزف حرب صاحب أغنية السيدة فيروز" إسوارة العروس."

سنابل الشّعر: رحلة في حقول الشاعر جوزف حرب

كتاب جديد للرفيق الدكتور رامز الحوراني

عزيزي القارئ

لماذا جوزف حرب؟

إن ما دفعني إلى اختياره ثلاثة أمور:

أوّلها: المادة الشعرية الغزيرة كمّا ونوعاً، وثانيها فرادته في ابتكار الصور الشعريّة العذراء، وموهبته الفذّة في الانسياب الشعريّ الشفيف والأنيق، وثالثها التنوّع في موضوعاته التي تطال حياتنا في ميادينها الدينيّة، والاجتماعية، والسّياسيّة، والإنسانيّة، والجّماليّة.

شعره حقول تحتشد فيها السنابل التي تتباهى بذهبها الذي يلهبه الشّوق للهرب عن تيجان الملوك، التبرعم على شفاه المهمّشين. جوزف حرب قامة شعريّة خصبة. شعره حقولٌ مترامية الأبعاد. فيه الحب والمحبّة، القمح والطحين، الجسد والروح، الملوك والعبيد، الغني والفقير، السّادة والعبيد، المسحوقون والطغاة، المؤمنون والملحدون، وأجمل ما فيه "بانوراما" الكون والطبيعة، التي طرّزها بإبرة خياله لمعةً لمعةً ورؤيا تلو رؤيا.

تشعر، وأنت تقرأ قصائده، بجاذبيّة سحريّة، لما فيها من الاحتراف في التصوير، والدقة في اختيار التعابير المشحونة بالأخيلة المشفّرة، التي تمثّل الجوهر الشعري، بالمشاهد الحسيّة، وتنساب انسياباً ماثياً، تكاد تصغى إلى الحركة فيها، منتصبّة أمام حواسك.

جوزف حرب من الشعراء العرب الكبار، فقد أثرى الأدب العربي بروائع شعريّة خالدة، بالفصحى والمحكية، وكان شعره المادة المفصّلة لأغاني سفيرتنا إلى النجوم السيّة الجليلة فيروز.

عاش جوزف حرب اللغة العربية مسؤولية وعي جماليّ حضاريّ، فكانت العربيّة تنبع من قلم شاعريتّه مكسوّةً بآيات سموّ الرؤيا، معطّرةً بعبق بخور الجمال، متوّجةً بآفاق الإبداع والدخول إلى عوالم سحره. لم يتعامل جوزف حرب من اللغة إلا ضمن هذا الاحترام، ومن خلال تلك الرؤيا التي اختطها لفعالية الكاتب والمثقف. فكان في شعره إضافةً نوعيةً إلى العطاءات الكبرى التي قدمها للعربية كبار مبدعيها وعظماء فنانيها. الشعر عنده روح الحياة التي يعيشها، وجوهر الوجود الذي يطل منه على الدنيا بتاريخها وناسها وأزمانها.

الشعر عنده هو قدس أقداسه، سخر له كل ما لديه من قدرةٍ وعلمٍ وبراعةٍ وثقافةٍ وكيانٍ. الشعر هو السر المحيي، وهو كأس قربان الرسالة التي ندب جوزف نفسه له، ونظر حياته ليسقي العطاشى ارتواءً منها لوجودهم.

ولقد قسمنا هذه الدراسة إلى خمسة فصول، تناولنا في الفصل الأول "استرداد الأصالة للإنسان المهمش" وفيه أربعة عناوين رئيسية، العنوان الأول: "الله هو القلم والكاهن هو الممحاة" وفي هذا العنوان عرضنا

عودة إلى الرئيسية

رأيه في رجال الدين وملخصه: إنما خطه الله في كتبه بدله رجال الدين بما يتناسب مع مشاربهم الدنيوية.

والعنوان الثاني: "الأرض قصر من العظام، وفيه يرى جوزف حرب أن الأرض التي أرادتها السماء مسكناً هادئاً للإنسان حولها الحكام والكهان والتجار إلى غابة فيها كل أنواع العذاب والقهر والحرمان تقرؤها في العيون المهترئة، والقامات النحيلة التي امتصها الجوع والعذيب.

والعنوان الثالث: "تقديس الأرض والتوحد معها" وفيه يرى الشاعر الأرض الأم الأولى، منها كل الأصول الإنسانية، وجميع الكائنات الحية، وكل الرؤى الفنية للمبدعين، وكل الخبز للجائعين. والأرض تتكلم بأبجديتها التي لا يقرؤها إلا الراسخون في معرفة الحقيقة الكونية، والذين يتقنون ترجمة هذه اللغة عبر سيبرانية خيالهم المجنح.

والعنوان الرابع: "الأرض هي الأم والوطن، والملوك هم الغزاة"، وفيه: من يحب أمة الأرض عليه أن يعمل على عمرانها وهذا لن يحصل إلا بأكف نقية، تفهم لغة السنبلة، والثقة المتبادلة بين البيدر والطاحونة، حتى يتأكد القمح بأنه سوف يصير طحيناً للفقراء قبل أن يسرقه الملوك والحكام.

والفصل الثاني: "الشاعر صاحب رسالة كبرى" وفيه أربعة عناوين: الأول: " الشعر هو الكتاب الديني للكون" وفيه: الشعر الذي ينفخ فينا روح التحليق إلى البعيد، هو مفتاح المغامرة الكبرى نحو الفتوحات الفكرية، لفهم الكون ومعناه، وقيمته بالنسبة للإنسان. ثم يأتي دور الإنسان، في البحث عن الطريقة المثلى لتحقيق وجوده. إنها مهمة مرهونة بمستوى معرفته التي وحدها تؤهله بتحقيق هذا الوجود، كما يريد وكما يرغب فكلما زادت معرفته زادت قدرته على التغيير، وكلما فقد هذه المعرفة غرق في الجهل والتخلف.

والعنوان الثاني: "رسالة الشعراء سد النقصان في الخلق"، وفيه: إن الكائنات لا تولد عبثاً. إنها تصبح بمعانٍ غير مرئية، ولا تدرك بالحواس. فإن أرادت أن تكشف عن معانيها تبددت، وذابت في ذواة الشعراء، الذين يتلمسون روحها ويتفاعلون مع جوهرها، فيكشفون لنا كنهها، وبذلك يسدون النقص في الخلق.

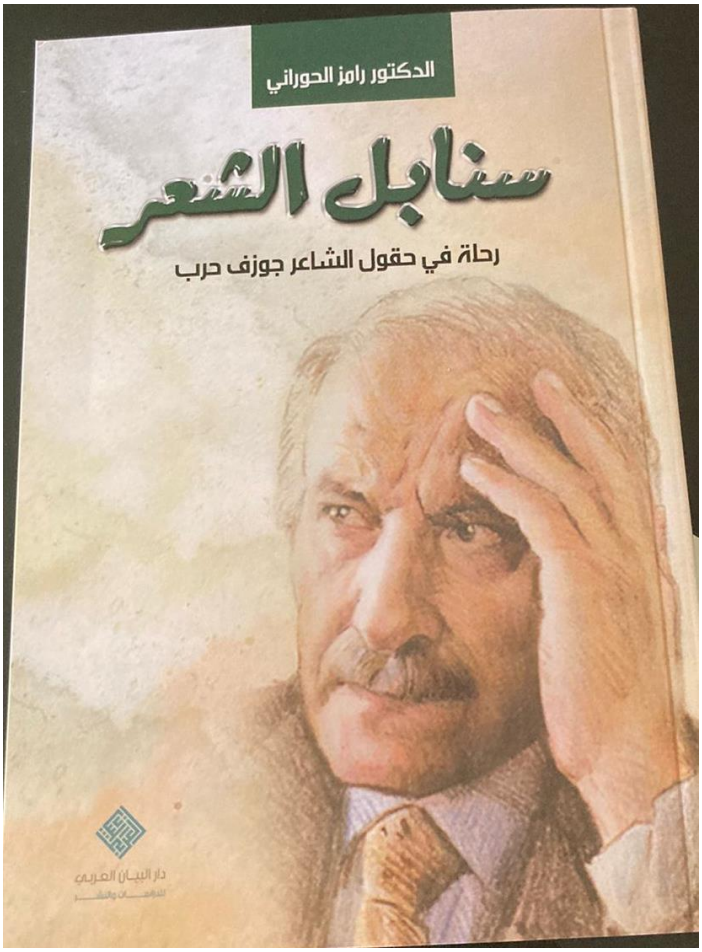

والعنوان الثالث: "الشاعر المبدع يعمل على اكتمال فكرة الله، وفيه: أن الله عندما خلق الكون جعل فيه أشياء واضحة وأخرى غامضة ليمتحن الإنسان المخلوق في كشفه للغامض من وحي الواضح.

والعنوان الرابع: "تمثل الجوهر الشعري بمشاهد حسية" وفيه الشعراء قد أشعلوا الفانوس، فيخرجوا الكلمات، نحو شموسها من عتمة القاموس وهذا يعني عند "حرب" أن المتشابهات، والمتطابقات، التي يلتقطها الخيال العلائقي ليست وحدها مكون شعريتها، وعناصر عالمه إنما هي مظهرٌ حسيٌ لجواهر ذلك العالم الحسيّ. فإذا كان الطرب جوهر، فإن الشعر يقطفه من مشهر الطحن حيث تتناغم جوقة الطبيعة المؤتلفة، من عوادي المياه، وتدوير الرّحى، وقصب السواقي.

الفصل الثالث: "بين الشعر والطبيعة"، وفيه عنوانان الأول: "توحيد العلاقة بين الشاعر والفلاح"، وفيه أن النص الشعري عند جوزف حرب، يوحد حقيقة المزارع مع حقيقة الشاعر، وإذا المزارع الشاعر الرائي الشفيف، لذلك دمج جوزف بين معجم فلاح ومعجم الشاعر في

عودة إلى الرئيسية

شبكة معجمية تسيطر على القصيدة كلها حتى بتنا نرى التراب ورقاً، والقلم سطراً، والمحراث ريشةً ، والمعاول والمحاريث وقضبان الرمان أقلاماً.

والثاني: "الطبيعة ديوان شعري"، وفيه التفاعل والتطابق إلى حدٍ كبير بين الشعر والطبيعة. يرى الشاعر بأن مشهد الحقول بعد الحصاد هو قصيدة. في الحقول المحصود، وجه التراب المغطّى ببقايا أسلات القمح يبدو صفحة بيضاء، والقش أسطراً وضلال العصافير والطيور التي تحوم حول الحقل لتلتقط الحب نقطاً أو علامات وقف...

والفصل الرابع: "المرأة والغزل في شعره"، وفيه وصف جسد المرأة من شعرها حتى أخمص قدميه، وتسمية الأماكن بأسمائها، بجرأةٍ وأناقةٍ وسياقٍ شعري أخّاذ، ولكنه لم يهمل الروح، فالمرأة في نظره بعد انساني للرجل، فهي بحره ونهره، ونسيمه وحديقته الغنّاء التي يأوي إليها لغسل عندها وبها تعب الحياة، ويكتب من وحيها أجمل الأيام والساعات.

وفي غزله متعةٌ وروعة، لما فيه من التصوير المثير، والإبداع، الذي ينقلنا إلى عوالم تضج باللذة والفرح، ويدخلنا إلى أعماق الجسد الأنثوي الذي يقطر الشهد في كل عضوٍ من أعضائه. وفي شعره مقاطع غزلية جميلة وعميقة، ولكن معظمها مشفّر برموز شاعرية ظاهرها التغزل بالطبيعة وباطنها غزل حقيقي بالحبيبة وبالمرأة ومفاتنها المادية والمعنوية.

والفصل الخامس: "الأبعاد الفكرية في شعره حول الوجود والله" وفيه خمسة عناوين.

الأول: "فشل الدين في تحقيق العدالة على الأرض"، وفيه أن الله قد أرسل الرسل والانبياء، كي ينقذوا البشرية من ويلاتها. لقد أتى هؤلاء ورحلوا، وإذا بالخطايا والظلم والشرور قد زادت.

والثاني: "الفردوس المفقود"، وفيه خطاب طويل إلى الله شاكياً فيه الجحيم الذي تتخبط فيه الأرض، عبر مجموعة من الأسئلة: إلهي، هل تريد للأرض هذا الجحيم؟ لماذا لا تجعل الشرائع عليها تتوالد بحيث يبقى النقيّ المثمر، ويسكت الفاسد. وهذه الأرض كما هي الآن، نصها غير كامل ونحن البشر لا نملك مفتاح السماء لنكمل هذا النص. ليتك يا الله، تضيف إلى نصوصك السابقة، نصوصاً جديدة فيها شيء من نصوص الطبيعة التي تتغيّر، وتتبدّل عبر دورة الفصول.

والثّالث: " الله هو العدل الجليل" وفيه وصف يليق بالخالق العظيم ومجموعة من الأدعية التي يتمنّى فيها من الله أن يستجيب لها ومنها: ما أجمل هذه الأرض، لو نزعت عنها ثياب الكهان، وألبستها ثيابك.

والرابع: "المقدس على الأرض هو الإنسان الذي يعمرها"، وفيه: لماذا لم تصعد إلى الفردوس بعد الأرض؟ ما أعرفه من نصك: أن العدل شيخ الأرض، والمحبة هي الزيت الذي يلين النفوس وسمنع عنها اليباس.

والخامس: "العقل هو المفتاح للوصول إلى الحقائق الكونية" وفيه أن صباح هذا العقل هو الذي سيمحو هذا الظلام، وبه وحده سنكتشف أسرار هذا الكون وسوف نجد به صورة الله مختلفة كثيراً عن الصورة المشوهة التي يعرضها رجال الدين علينا.

والفصل السادس: "ما قاله فيه معاصروه، وفي هذا الفصل عرضنا نصوصاً شعرية ألقاها الشعراء في حفل تأبينه، منهم: الشاعر اللبناني طارق آل ناصر الدين – الشاعر اللبناني باسم عباس – الشاعر السوري عبد القادر الحصني – الشاعر اللبناني محمد علي شمس الدين – الشاعر اللبناني غسان مطر – الشاعر المصري فاروق شوشة.

د. رامز الحوراني

يحق للسوريين أن يفتخروا

بقلم رئيس الندوة الثقافية المركزية

الأمين الدكتور إدمون ملحم

يقول باحث الآثار الفرنسي وعالم المسماريات الشهير، شارل فيرلو، وهو أول باحث آثار تولى فك رموز أبجدية الأوغاريتيين المكتشفة في موقع أوغاريت في تل رأس شمرا قرب مدينة اللاذقية الساحلية، وهي أول وأكمل أبجدية في التاريخ وتعود إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد. يقول: "لكل إنسان وطنان.. وطنه الأم وسورية."

وما دفع شارل فيرلو لإطلاق هذه العبارة هي معرفته بحضارة هذه البقعة الجغرافية المتميزة بخصوبة أرضها وإنسانها المصارع، العملي والطموح، الذي كان سباقاً في اختراع الكتابة الأولى (الصورية ومن ثم المسمارية) وإنشاء المدرسة الأولى وإطلاق الشعاع الأول وممارسة الحياة الديمقراطية والإصلاح الاجتماعي وفي ابتداع أول برلمان وأول تقويم وأول نظام فلكي..

يحق للسوريين أينما كانوا أن يفتخروا ويعتزوا بأمتهم السورية لما أعطته للعالم من إسهامات حضارية إنسانية رفيعة ولما يختزنه تاريخها الفكري–الثقافي–الروحي والسياسي والاجتماعي من فن وعلم وطب ومنطق وفلسفات وشرائع وملاحم وأساطير وعبقريات وبطولات وإنجازات.

يحق للسوريين أينما كانوا أن يعتزوا بأمتهم السورية التي علّمت الأمم قيمة القوة البحرية وكانت على مر الأزمنة والعصور، وما زالت، أمة معطاء، خيّرة، ومسالمة، أعطت العالم العطاءات السخية بدون حساب وفتحت له دروب الخير والتعارف والتفاعل والسلام.

سورية، أمة العقل والتمدن، وزّعت من حضارتها وأبجديتها ومعارفها وقيمها وجازفت بأبنائها ليكونوا رسل محبة وسلام ورواد علوم ومعرفة. جاءت بالرسالات السماوية والفلسفات الاجتماعية وإشعاعاتها الأولى: الشرائع التمدنية، ووزعتها على باقي الأمم لتكون منارات لها على دروب الفضيلة والعدالة والسلام. من رحمها ولدت المسيحية لتنسف صنميتهم ووثنيتهم الخرافية ولتفجّر ينابيع المحبة والرحمة والقيم الجديدة ومن أرجاءها انطلقت المحمدية لتكمل رسالة الإسلام ولتحطم ما تبقى من أصنام وأوثان.

وتاريخ سورية القومي السياسي الثقافي حافل بالأمجاد والاكتشافات والمنجزات الحضارية وتأسيس المدن والمستعمرات.. وما أكثر الآثار التي اكتشفت في مناطق عديدة فيها (في أوغاريت وإيبلا وماري وبيبلوس وغيرها من

الأماكن الأثرية في لبنان وقبرص ووادي الرافدين) التي تظهر إسهام أمتنا في الفكر الحضاري لا بل أسبقيتها على العالم في استنباط المآثر الحضارية في كافة شؤون الحياة ونشرها وتعميمها إلى سائر أصقاع الدنيا.

فقد شهدت بلادنا أقدم الحضارات وسبقت باقي الأمم في ممارسة الديمقراطية والمساواة بين البشر وفي وضع الشرائع والقوانين في كافة الأمور وتطبيقها (قانون أورنمو عام 2110 ق. م. وقانون لبت عشتار عام 1930 ق. م. وقانون ايشنونا عام 1850 ق. م. وتشريع حمورابي عام 1780 ق. م.) وفي ابتداع العلوم والفنون وممارسة الطب والعمليات الجراحية ومسح الأراضي واستخدام المحراث وحفر الأقنية وجر المياه وتخزينها في الآبار وإتقان الفنون الصناعية والخزفية والزجاجية وبناء القصور والمعابد والحصون ونحت التماثيل واعتماد الثورة وحروب التحرير والسعي الدائم لتحقيق وحدة جماعات البيئة الواحدة في دولة مركزية قوية وإنشاء المدارس والمعاهد التعليمية والمكتبات ووضع الفلسفات الاجتماعية المتسلحة بالأدلة العقلية وممارسة مراسم وطقوس دينية تحمل في طياتها تفكيراً روحياً سامياً ودعوة الى المحبة والسلام.

ويكفي أن نقول إن أجدادنا السوريين كانوا عمليين ورواداً في العديد من مجالات الحياة. فهم اكتشفوا النار والمعادن ودجّنوا الحيوانات والنباتات وابتكروا الزراعة واستصلحوا الأراضي واخترعوا الدولاب والمحراث والآلات وأنشأوا صناعات الفخار والخزف والأسلحة والغزل والنسيج والأصبغة وبدأوا الكتابة التي طوروها من التصوير الى المسمارية الى اختراع الأحرف الهجائية التي علّموها لليونان ومن ثم نشروها في أوروبا وبقية العالم وأقدموا على دراسة الأجرام السماوية فوضعوا التقاويم وأسهموا في تأسيس "علم الفلك" وعرفوا التجارة ومارسوها في البر وفي البحر وأنشأوا العملة والأوزان والمقاييس وكانوا السباقين في طرح مشكلات فلسفية حول أصل الوجود وفي عبادة الإله الواحد "إيل" أو "بعل" او اي اسم آخر نسبة الى المنطقة الجغرافية ولهجتها.

وفي مراحل تاريخ أمتنا تأسست المدن–الدول التاريخية كسومر وآكاد وبابل وماري وأشور ونينوى وارام وكنعان وإنطاكيه وغيرها من المدن المزدهرة والمشّعة على من حولها وبرز في أوساطها العديد من القواد والحكماء والفلاسفة النوابغ الذين كانت لهم أهداف أساسية وإسهامات كبيرة في تاريخ الحضارة الإنسانية. ومن هؤلاء القواد والعظماء نذكر، على سبيل المثال لا الحصر، سرجون الآكادي الكبير موحّد بيئته الطبيعية لأول مرة في التاريخ والملك حمورابي العموري (1750–1792 ق. م.) مؤسس الدولة المركزية القوية وجامع الشرائع السورية الأولى في العالم وموحّدها في كتاب واحد. ونذكر أور نامو ملك أور وآشور الذي امتاز بعبقريته العسكرية ونبوخذ نصر الكلداني الذي نقل زعماء اليهود الى بابل في محاولة منه لصهر جماعاتهم في البوتقة السورية.

ومن المدن–الدول الفينيقية المنتشرة على الساحل السوري الممتد من فلسطين في الجنوب حتى كيليكية في الشمال، من عكا وحيفا ويافا وغزة وبيسان وأريحا وصور وصيدون

وبيروت وجبيل وطرطوس وأرواد وجبلة وأوغاريت والإسكندرون وغيرها من المدن والقرى انطلق الكنعانيون بسفنهم يمارسون حياتهم البحرية وينشرون ثقافتهم ومعارفهم ومستعمراتهم في البحر السوري، المعروف بالمتوسط، لينتقلوا فيما بعد الى آخر آفاق المعمورة يكتشفون مجاهلها ويملؤون أجزاءها المعروفة والمجهولة بأمجادهم وعظماتهم ومحطاتهم ومدنهم الجديدة لتكون قواعد انطلاق حضاري توزّع أنوارها على العالم.

انطلقوا من صور وصيدون ليؤسسوا محطات تجارية في بلاد مجهولة وبعيدة... أبحروا على طول الساحل الشرقي لأفريقيا ووصلوا إلى جزر الكناري وصقلية ومرسيليا وغيرها من الشواطئ البعيدة لبريطانيا والنرويج ومدن أوروبا حاملين منتجاتهم وكنوزهم وصبغ اللون الأرجواني. وأظهرت الإثباتات الأركيولوجية انهم وصلوا إلى أستراليا وإلى أميركا الشمالية والوسطى والجنوبية وكانوا المكتشفين الأوائل لهذه القارة قبل كريستوف كولومبس بقرون عديدة وقد تركوا فيها آثاراً واضحة وكتابات مدهشة نجدها على صخرة دايتون في الولايات المتحدة الأميركانية وصخرة غافيا في عاصمة البرازيل والصخرة العظيمة التي تسمى بالحجرة المنحوتة في ولاية براهيبا البرازيلية وعلى الصخور الواقعة على ضفاف نهر الأمازون والأنهر المنصبة فيه كما نجدها في جبال الأندس وبطاح الأرجنتين وفي لغة وعبادة قبائل التسندال في المكسيك.

وانطلقوا من صور بقيادة الأميرة الشجاعة أليسا (اليسار) إبنة الملك ميتينوس وبنوا قرطاجة عاصمة المجد وملكة البحار، تلك المدينة–الدولة الفينيقية التي امتازت بالحيوية والبراعة والإبداع والتي حققت مرتبة ممتازة من الرقي والتمدن والازدهار في جميع الحقول مكنتها من فرض سيطرتها على المستعمرات المغربية ولعب دور حضاري في شمالي أفريقيا وجزر البحر وإسبانية وبريطانية وغالية ومن اكتساب صداقات الشعوب وجعلهم حلفاء لها.

وفي عاصمة المجد ترعرع هاني بعل ابن هملقار العظيم وأعظم نابغة حربي في كل العصور وكل الأمم، هاني بعل الذي أعلن الحرب على رومية واجتاز جبال الألب الشاهقة والمغمورة بالثلوج لينقضّ على عدوة قرطاجة التي هالها ما رأته من براعة الفينيقيين وانتشار حضارتهم فطمعت باحتلال ملكة البحار وبفرض سيطرتها على بلاد حوض البحر المتوسط. هذا القائد القرطاجي الذي رفض مصير الخنوع والعبودية واختار درب القتال ليرفع اسم قرطاجة عاليا تجسّدت في مواقفه الأصالة السورية وروح المواجهة والبطولة والصراع.

ومن إحدى المدن على سواحل آسية الصغرى انطلق طاليس الفينيقي (أول فيلسوف في العالم ويعرف بأبو الفلسفة) إلى جزر بحر ايجه ليبشّر بفكر فلسفي جديد وليؤسس أول مدرسة فلسفية في تاريخ الإنسان فيتلقف المجتمع اليوناني تعاليم هذه المدرسة "الأيونية" وروائعها الإنسانية والأدبية والفنية ليبدأ عهداً جديداً في امتداد العلم الصحيح

والافتراضات المنطقية. ومن كيتيون في قبرص الفينيقية، انطلق معلم الحياة زينون بن منسى السوري لينشر مبادئ فلسفته الرواقية الإنسانية في أثينا وليعلّم الفضيلة المطلقة والمواطنة الكونية. ولقد كان لفلسفته الأخلاقية الجديدة أثر كبير ليس على الفكر اليوناني فحسب، بل على الفكر الروماني والأوروبي من بعده.

وبالإضافة إلى الشرائع البابلية والعبقرية الأشورية والحضارة الفينيقية، أعطت سورية الثقافة الآرامية التي حلت لغتها التي تكلم بها السيد المسيح محل اللغة الكنعانية وتغلبت حتى على اللغة العبرية لتتحول بعد ذلك إلى لغة عالمية ذات نفوذ وتأثير ثقافي كبيرين.

يحق للسوريين أينما كانوا ان يفتخروا بأصالتهم القومية وبأمتهم العظيمة لما أعطته عبر العصور من أنبياء ورجال عظماء وقواد خالدين ومن أدباء ومفكرين ومبدعين ظهروا في تاريخنا الحديث وتركوا آثاراً قيّمة في الحضارة والفكر والعلوم الإنسانية لا يمكن طمسها أو نسيانها. ومن بين هؤلاء نذكر المفكر فرنسيس المراش الحلبي، أحد رواد الأدب الرومانسي في القرن التاسع عشر، وعبد الرحمن الكواكبي، أحد رواد الفكر السياسي الإصلاحي، والدكتور خليل سعاده، رائد الفكر والأدب والسياسة والنضال القومي في العقود الأولى من القرن الماضي، والأديب جبران خليل جبران صاحب الروائع الأدبية والفنية الذي ذاع صيته في العالم، والأديبة الكبيرة مي زيادة والمعلم بطرس البستاني والعبقري كامل الصباح الذي امتاز بعقل منتج وروحية مبدعة خلاّقة.

ويحق للسوريين ان يفتخروا بأروع ما أعطته سورية في تاريخها الحديث: رجلاً عظيماً امتاز بعبقريته ونبوغه... رجلاً كانَ آية في المناقبِ الجديدةِ وكان فيلسوفاً وقائداً وهادياً، كرّس حياته لينقذ أمته من ويلاتها وأمراضها، فأسس مدرسة فكرية ووضع أسس نهضة قومية اجتماعية جاءت بنظرة جديدة إلى الحياة والكون والفن، نظرة أهدت أدباءنا وشعراءنا ومدرسة تربى فيها المصارعون وتخرّج منها الأبطال والشهداء والمبدعون ومشاعل نهضوية في شتى الحقول. هذا الرجل العبقري المتفوق في الفكر والعطاء والبطولة، الزعيم الخالد، قال فيه الشهيد كمال جنبلاط: "إن سعاده هو رجل عقيدة ومؤسس مدرسة فكرية كبرى وباعث نهضة في أنحاء الشرق قد يندر لها مثيل".[1]

[1] الحزب السوري القومي الاجتماعي، استجواب جنبلاط التاريخي للحكومة حول استشهاد سعاده عام 1949، منشورات عمدة الإذاعة، ص 94-95.

شؤون فكرية

العولمة وموقف سعاده والحركة القومية الاجتماعية منها

بقلم الرفيق شحادي الغاوي*

لقد كثر استعمال مصطلح العولمة في الإعلام وفي الأوساط السياسية والاقتصادية، كما في الأوساط الأكاديمية والفلسفية أيضاً، وصار الأكثر تحميلاً لمعاني ومقاصد مختلفة ومتضاربة.

إن ازدحام المصطلحات في وسائل الاعلام، في وقت أن الوسائل الإعلامية هي نفسها كثيرة ومتزاحمة ومتسابقة، أدى ويؤدي الى خلط وتشويه كبير في معاني هذه المصطلحات وفوضى عظيمة في مفاهيم يفترض أن تكون واضحة وجلية.

إن مصطلح العولمة هو المثل الرائع على هذا الخلط وهذه الفوضى. فالإيحاءات متعددة ومتضاربة حول معناه والمقصود منه.

فمن المعنى الفلسفي لمصطلح العولمة حيث النظريات الارتجالية المتسرعة التي تقول بأفول، أو حتى سقوط مفهوم القومية ومفهوم "الواقع الاجتماعي" من العالم لصالح مفهوم المجتمع العالمي أو حتى مفهوم "القرية العالمية".

الى المعنى العلمي حيث الإفراط في التفسيرات المبالغ فيها حول تأثيرات ازدياد وازدهار وسائل الاتصالات وسرعتها وسرعة تطورها، وما ينتج عنها، زعماً، من إلغاء الحواجز والحدود والاختلافات في شخصيات الأمم وخصائصها الاجتماعية والثقافية والنفسية.

الى المعاني الاقتصادية لهذا المصطلح وما تحمله من أهداف إزالة كل ما يمنع انفتاح أسواق العالم كله للإنتاج الزراعي والصناعي للدول الكبيرة المسيطرة، دون "عوائق قومية" لدى المجتمعات والدول الأخرى المسَيطر عليها، ودون كوابح من سياسات هذه الدول الاخرى لضبط إنتاجها القومي وتوزيعه وحمايته من منافسة الإنتاج الوافد من دول أخرى.

نحن نرى أن التأويلات الفلسفية لمصطلح العولمة، كما محاولات إعطائه تفسيرات علمية تقول بأن الاقتصاد هو مثل الثقافة ومثل العلم، عالمي وملك البشر أينما كانوا، وهذا تضليل كبير، إنما هي لخدمة الهدف السياسي– الاقتصادي للدول والأمم المسيطرة. ولا نبالغ أبداً إذا قلنا إن مصطلح العولمة يخفي مصالح وأهداف أمنية وعسكرية أيضاً. فالعالم اليوم يشهد لأول مرة في التاريخ كيف أن الدولة الأميركية المهيمنة في العالم اقتصاديا وعسكرياً، وبالتالي سياسياً، لا تتورع عن استعمال أساليب الحصار والعقوبات والضغط والتهديد لإغلاق أسواق في العالم وفتح غيرها، وكأن أربعة أطراف العالم هي مسرح واحد وملعب واحد تكون فيه هي نفسها اللاعب الوحيد والحكم الوحيد في نفس الوقت.

أولاً: العولمة مصطلح جديد لقضية قديمة، وسعاده انتقدها بشدّة.

لا يختلف مصطلح العولمة ومضمونه الظاهر والمستتر على السواء عن مفهوم "الأممية"، أو الحكومة العالمية، أو حتى مفهوم "يا عمال العالم اتحدوا". فهذه المقولات والمصطلحات التي سادت وانتشرت خاصةً بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية في النصف الأول من القرن الماضي، تعود وتظهر اليوم تحت مسمى جديد هو مسمى العولمة.

بتاريخ 15–4–1949 كتب سعاده مقالته الخالدة "حق الصراع هو حق التقدّم" في جريدة "كل شيء"، استهلها بالكلام على العناوين السياسية التي كانت حاضرة في ذلك الوقت، قال: "الإنترناسيونية الشيوعية الروسية والعالمية الأميركانية ومنظمة الأمم المتحدة ومؤسستها الثقافية (الأونيسكو) والمؤتمر الثقافي العالمي والجمعيات

عودة إلى الرئيسية

الدينية بأشكال عديدة– وجميع هذه مؤسسات تريد في الظاهر وحدة إنسانية وسلاماً عالمياً دائماً" (الاعمال الكاملة ج8 ص 324).

إن مقالة "حق الصراع هو حق التقدم" هي مقالة سياسية تناول فيها سعاده الناحية السياسية– الاقتصادية من مفهوم العولمة الذي ظهر آنذاك تحت مسميات مختلفة. لكن لسعاده موقف فلسفي مبدأي من هذه القضية موجود في مبادئ الحزب الأساسية، كما له موقف علمي حاسم منها في كتابه "نشوء الأمم". أما موقفه وموقف الحركة السورية القومية الاجتماعية السياسي من هذه القضية فبديهي أن يكون منسجماً مع ومبنياً على الموقفين المبدئيين العلمي والفلسفي.

في العودة الى مقالة سعاده السياسية التي تحمل موقفه السياسي فأننا، لشدة وضوحه، لا نحتاج لشرحه إلا إيراد عباراته حرفياً، يقول:

"لا تعني الوحدة الإنسانية وحدة حقيقية لجميع الناس وتساوياً تاماً في التمتع بموارد الخير وفي توزيع الموارد الأولية الموجودة في الأرض على جميع الناس بالتساوي. ولا تعني صيرورة الناس أمة واحدة في وحدة الحياة والشعور والنظر الى الحياة". ويضيف:

"لا تعني وحدة الحركة العمالية الطبقية الشيوعية في العالم أن العمال السوريين ستكون لهم حالة مساواة في الحياة والمعاشرة والمنزلة والنتائج مع العمال الروس والفرنسيين والإنكليز وغيرهم، فخصائص الشعوب ونفسياتها لا تزول بمجرد فكرة سياسية أو اقتصادية. ولا تعني العالمية الأميركانية أن الأميركان هم مستعدون لمقاسمة جميع الشعوب الفقيرة خيرات بلادهم الاميركانية. ولا تعني الأونيسكو والمؤتمر الثقافي العالمي غير دعوة كل فئة الى سلام تسيطر عليه الأمة الأقوى وتضبط بواسطته حالة جميع الأمم وتحافظ على سيطرتها وما تعنيه سيطرتها من امتيازات لشعبها ومن خير يمكنه أن يُلقى بفتاته الى بقية الشعوب."

هكذا يكشف سعاده الباطن المستور من شعار الوحدة العالمية والسلام العالمي، ويعلن موقفه وموقف الحركة القومية الاجتماعية التالي:

"أن الاستسلام لفكرة الوحدة العالمية والسلام العالمي الدائم يعني التنازل عن الصراع والحرية وعن الحق والانتصار. والأمة التي تتنازل عن الصراع تتنازل عن الحرية، لأن الحرية صراع!

إن النهضة القومية الاجتماعية لا ترفض السلام العالمي الدائم بعد أن تكون قد حققت انتصاراتها العظمى التي تجعل للأمة السورية مرتبة ممتازة في السلام وفي حقوق السلام. أما السلام العالمي بعد تجريد الأمة السورية من حقوقها القومية في كيليكية والإسكندرون وفلسطين وسيناء وقبرص، وبعد تجريدها من مواردها الطبيعية، فماذا يعني لها غير الذل والفقر والفناء؟".

والحقيقة أن موقف سعاده لم يعلنه فقط في مقال سياسي في جريدة سياسية، بل نستطيع قراءته في مبادئ الحزب، في نظرة سعاده الى الإنسان، وفي النظرة القومية الاجتماعية الى الحياة والكون والفن الظاهرة في جميع شروح سعاده لمبادئه وعقيدته وفلسفته، كما نستطيع قراءته في كتابه العلمي نشوء الأمم الذي "يوضح الواقع الاجتماعي الإنساني في أطواره وظروفه وطبيعته، ففي الدرس تفهّم صحيح لحقائق الحياة الاجتماعية ومجاريها. ولا تخلو أمة من الدروس الاجتماعية العلمية إلا وتقع في فوضى العقائد وبلبلة الأفكار".

ثانياً: وضوح سعاده في مقابل تهافت وهفت بعض تلاميذه.

إن "فوضى الأفكار وبلبلة العقائد" التي حذر منها سعاده لم يسلم منها حتى بعض تلامذته أنفسهم. فرغم وضوح سعاده وتصنيفه للأفكار والمقولات والمصطلحات بين ما هو علمي أو فلسفي أو سياسي، فإن قلة الدرس والبحث لصالح النزوع الشديد الى الارتجال في المواقف السياسية دون أساس من علم وعقيدة، قد أدى بالبعض الى تبني مقولة العولمة والعالمية والأممية. إن المواقف المرتجلة لم تستطع التمييز بين عولمة السيطرة وإخضاع الأمم، من جهة، وبين عالمية الدعوة القومية الاجتماعية من جهة أخرى. إن قول سعاده في رسالته الى القوميين الاجتماعيين سنة 1947 بأن الأمة السورية هي "أمة معلمة وهادية للأمم بنّاءة للمجتمع الإنساني الجديد وقائدة لقوات التجدد الإنساني بروح التعاليم الجديدة التي تحملون حرارتها المحيية وضياءها المنير الى الأمم جميعها"، وقوله أيضاً أن "هذا العالم يحتاج اليوم الى فلسفة جديدة وأن هذه الفلسفة الجديدة التي يحتاج اليها العالم– فلسفة التفاعل الجامع الموحد القوى الإنسانية– هي الفلسفة التي تقدمها نهضتكم". إن هذا القول وهذه الفكرة تختلف اختلافا جذرياً عن فكرة السيطرة على الأمم الضعيفة والمغلوبة التي ذكرها في مقالة "حق الصراع هو حق التقدم".

وبعد ثمانين سنة من صدور كتاب نشوء الأمم لا زال كثير من القوميين الاجتماعيين يسيئون فهم عبارة سعاده: "من يدري هل يقدر للإنسانية

عودة إلى الرئيسية

أن تصبح مجتمعاً واحداً في مستقبل العصور" ويؤولونها عكس معناها الحقيقي ويرددون ببغائياً ويقولون: "سعاده سأل نفسه هل يصبح العالم أمة واحدة في المستقبل، فأجاب: من يدري". أما الحقيقة فهي أن سعاده لم يسأل ولم يجب، وهو برئ من هذا التأويل الأعوج المستعجل اللجوج الذي يريد أن يقول: صحيح أننا اليوم أمة سورية تامة ولكن يمكن أن نصبح أمة عربية في المستقبل، والأمة العربية قد تختفي ويصبح العالم أمة واحدة، بما يوحي أن هذا المستقبل هو مستقبل قريب.

أما حقيقة قول سعاده فهو أنه في الفصل السادس من كتاب نشؤ الأمم الذي عنوانه "نشؤ الدولة وتطورها"، وتحت العنوان الفرعي الأول "الثقافتان المادية والنفسية"، وفي الفقرة الثانية يقول:

"ولقد تكلمنا على الاجتماع البشري وأشرنا الى أنه عريق في القدم وأنه صفة بشرية عامة، حتى أن ما قلناه في هذا الصدد ليحمل على الاعتقاد أن اجتماعية الإنسان شيوعية بلا حدود أو قيود، والواقع غير ذلك، فالمجتمع الإنساني ليس الإنسانية مجتمعة، ومن يدري هل يقدر للإنسانية أن تصير مجتمعا واحدا في مستقبل العصور".

إن سعاده في قوله أعلاه كان يتابع شروحه العلمية حول معنى اجتماعية الإنسان تمهيداً للدخول في معنى الدولة وواقع الدولة الذي هو المجتمع. كان سعاده يوضح ما يعنيه بعراقة الاجتماع البشري في القدم وما يعنيه بأن الاجتماع هو صفة بشرية عامة، كي لا نسيء فهم المقصود من عبارة "صفة بشرية عامة" وكي لا نظن أنها تعني أن المجتمع الإنساني هو الإنسانية مجتمعة، وكأن الانسانية مجتمع واحد. يريدنا أن نفهم بأنه حيثما وجدنا الإنسان وجدناه بحالة اجتماعية، دون أن يعني ذلك أن الإنسانية مجتمع واحد.

سعاده يريدنا أن نعرف أن "الواقع غير ذلك"، الواقع ليس مجتمعاً إنسانيا واحداً، وأنه لا أحد يستطيع القول أو يدري إذا كانت الإنسانية سيقدر لها أن تصير مجتمعاً واحداً في مستقبل العصور. أما العصور فهي قياس الأزمنة الطبيعية، كأن نقول العصر الجليدي أو العصر الحجري أو المعدني. وعبارة مستقبل العصور تعني مئات الآلاف من السنين المقبلة.

أننا في هذه المناسبة نهيب بجميع الرفقاء السوريين القوميين الاجتماعيين أن يدرسوا سعاده بهدوء والكف عن الترديد الببغائي للخرافة، بل للكذبة التي تقول إن سعاده سأل نفسه وأن سعاده أجاب نفسه، ولكل هذه الحكاية السخيفة التي لا تعني إلا أنه غداً ستصبح البشرية مجتمعاً واحداً. إن معنى قول سعاده الآنف الذكر هو تماماً عكس ما أراد البعض تحميله.

"إن حياة الأمم هي حياة حقيقية لها مصالح حقيقية"، عبارة رددها سعاده ثلاث مرات في محاضرته السادسة التي شرح فيها المبدأ الأساسي السابع. ولا يمكن لأية فلسفة في العالم، ولأية سياسة، أن تلغي واقع الحياة الإنسانية مجتمعات وأمم لها حياتها ومصالحها ولها شخصياتها المستقلة ومطالبها ومثلها العليا.

إن فكرة العولمة، القديمة– الجديدة، ومهما زيّن لها فلاسفة وعلماء ومؤرخون وسياسيون، هي فكرة غير واقعية ولا تتوافق مع حقائق الحياة البشرية، ولا تستجيب لمطالب الشعوب في العالم، وبالتالي هي غير قابلة للتحقيق. لذلك نرى كيف يتم تسويقها بالتضليل والأكاذيب والخداع، وكيف أن من يحمل لواءها اليوم هم سياسيو الدول الاستعمارية المسيطرة والتي تتوسل القوة العسكرية لفرض سيطرتها على العالم.

وشتان بين السيطرة بالقوة العسكرية وسياسة العقوبات وتهديد مصالح الشعوب، وبين "قيادة قوات التجدد الانساني بروح التعاليم الجديدة وحرارتها المحيية وضيائها المنير".

---

* الرفيق شحادي الغاوي باحث وكاتب مقيم في سيدني.

مفهوم سعادة للدولة القومية الاجتماعية

بقلم الأمين الدكتور يوسف كفروني

بعد سقوط الاتحاد السوفياتي برزت الولايات المتحدة الأميركية قطبا وحيدا مهيمنا في العالم، وبدا لكثيرين أن نموذج دولتها "الديمقراطية الليبرالية"، هو النموذج المنتصر الواجب تبنيه من قبل سائر المجتمعات الإنسانية.

انطلقت موجة العولمة المؤمركة، وازداد تدخل الدولة الأميركية في معظم الدول والمجتمعات الإنسانية، وانتشرت قواعدها العسكرية وأساطيلها البحرية في كل زوايا الأرض، وشنّت الحروب بعناوين متنوّعة: حقوق الإنسان، حماية الأقليات، محاربة الإرهاب، ونشر الديمقراطية .

نشر فرنسيس فوكوياما كتابه نهاية التاريخ يعلن فيه انتصار نموذج الدولة الديمقراطية الليبرالية، والأسواق الحرة.

إن تاريخ أميركا الحالي والحديث لا يبشر بخيرات الديمقراطية، فبعد الحرب العالمية الثانية تحالفت مع أشد الأنظمة تخلفا ورجعية وديكتاتورية، ودعمت ولا تزال، أبشع الأنظمة الاستيطانية والعنصرية، وتتحالف الآن مع الحركات الدينية المتطرفة والتكفيرية وتسخرّها في خدمة سياساتها.

بعد الخيبات المتتالية من الحروب الأميركية وأزماتها المالية ومشاكلها الداخلية، ومع سيطرة الشركات المالية والصناعية والإعلامية الكبرى على القرار السياسي، هل يمكن اتّباع النموذج الأميركي والتباهي به؟! أليس من الأجدى إعادة النظر بديمقراطية الطبقة الرأسمالية المسيطرة في أميركا لتصبح ديمقراطية حقيقية في خدمة مجموع الشعب؟!

في كتاب ديمقراطية للقلّة، يظهر المحلل السياسي مايكل بارنتي، التناقض بين الرأسمالية القائمة والديمقراطية، وكيف ينتهك النظام الرأسمالي الديمقراطية بشكل مستمر. ويكشف العلاقة القوية بين السلطة السياسية والقوى الاقتصادية .

ويجيب على الأسئلة الكاشفة لحقيقة الواقع الاجتماعي والسياسي في أميركا:

ما هو النهج الذي يتبعه النظام السياسي في الولايات المتحدة وكيف يؤدي مهامه؟ ما هي القوى الرئيسية التي تشكّل الحياة السياسية؟ من الذي يحكم الولايات المتحدة؟ من يحصل على ماذا، ومتى، وكيف ولماذا؟ من الذي يدفع الثمن وبأي السبل يتم ذلك .

ويظهر كيف أن الحكومة تمثل أصحاب الامتيازات. وأن قوانين الدولة وضعت لدعم مصالح من يملكون على حساب البقية.

ويبيّن السيطرة البشعة لمالكي الثروات الهائلة وقوة طبقة أصحاب الأعمال والشركات العملاقة، وكيف تلتهم موارد البيئة وتسمّم الأرض والماء والهواء. وهي تبتلع ثروات فائضة هائلة وتساعد في نفس الوقت على خلق وإدامة الفقر لدى الملايين من الناس في داخل الولايات المتحدة وخارجها. (بارنتي، 2005، صفحة 10و11 و15و16و32)

في النصف الأول من القرن العشرين، ظهر أنطون سعادة، زعيم ومؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي (1904-1949). انتقد بشدّة ممارسات الغرب الاستعماري تجاه الشعوب، وانتقد أنظمتها الاستعمارية المنحرفة عن جوهر الديمقراطية. كما انتقد النماذج الأخرى التي ظهرت في الغرب مثل الفاشية والنازية والشيوعية. وانتقد الدعوات المنتشرة في العالم العربي، الدعوات الرومانسية والعاطفية المتطلعة إلى الوراء لإحياء الإمبراطورية العربية، والدعوات إلى الدولة الدينية التي لم تعد صالحة لهذا العصر، وكذلك الدعوات لإقامة دول على أساس العصبيات الطائفية أو العرقية أو القبلية والعشائرية .

تشابهت نماذج الدول الديمقراطية الرأسمالية مع الدول الفاشية والنازية بالنهج الاستعماري العدواني والممارسات العنصرية تجاه الشعوب الأخرى .

انطلقت الفاشية الإيطالية والنازية الألمانية، من النظريات العرقية بادعاء النقاء والتفوق لكل من العنصرين اللاتيني والجرماني، ومارستا العنصرية تجاه الجماعات المختلفة في الداخل وتجاه الشعوب الأخرى.

اعتمدتا على تنظيم المجتمع وفق النظرة المثالية الروحية للقومية العنصرية وتأليه العرق والدولة. واستطاعتا استقطاب نسبة كبيرة من

عودة إلى الرئيسية

المجتمع المأزوم بسبب الهزائم الخارجية والأزمات الاقتصادية الداخلية، وإعادة تنظيم المجتمع وفق النظرة الجديدة فحلّت مشاكل البطالة والعمل ولكنّ النظرة اللاعلمية، الضيقة والمحدودة خلقت مشاكل أكبر مع الجماعات المختلفة داخليا ومع الشعوب المستهدفة بعدوانها ومع الدول التي سبقتها في الاستعمار.

الديمقراطية الرأسمالية تشابهت مع الشيوعية في نظرتها الأممية وفي محاربة القومية وبالنظرة المادية.

انطلقت الرأسمالية من النظرة المادية لمصالح الرأسماليين، وانطلقت الشيوعية من النظرة المادية لطبقة البروليتاريا.

خلقت الرأسمالية طبقة حاكمة من المركّب العسكري الصناعي، يسعى للهيمنة وفرض نفوذه على العالم. وخلقت الشيوعية طبقة إقطاعية جديدة مهيمنة باسم البروليتاريا وتمّ تسخير الأحزاب الشيوعية في العالم لمصلحة مركزها في موسكو وسعت أيضا لمد نفوذها والهيمنة على العالم.

الأنظمة في العالم العربي هي بالإجمال وليدة الاستعمار الغربي وخاضعة لنفوذه. والنظم التي حاولت التصدي له يتم التآمر عليها بشتى الطرق.

أسّس سعادة مشروعه النهضوي ودعا إلى الدولة القومية الاجتماعية، دولة الأمة السورية في الوطن السوري، ودفع حياته ثمنا لهذا المشروع.

ما هي هوية هذه الدولة وما هي منطلقاتها وتوجهاتها؟ وما هي مرتكزاتها العلمية والفلسفية؟

نظرة سعاده الفلسفية

درس سعادة نشأة الدولة والأشكال التي اتخذتها وصولا إلى الدولة العصرية التي نشأت في الغرب،

نتيجة الثورة الصناعية والثورات السياسية، وسجّل باكرا انحراف الديمقراطية في دول الغرب عن مسارها.

درس الدولة في سياق دراسته لتطور المجتمعات ونشوء الأمم، وقدّم رؤيته للدولة القومية الاجتماعية، كما يجب أن تكون وفق تصوره .

ينطلق سعادة من دراسته للواقع الإنساني والاجتماعي على ضوء الحقائق المثبتة علميا، ومن مرجعية العقل الشرع الأعلى للإنسان.

لذلك استند إلى دراسة التاريخ الإنساني وما توصلّت إليه المدرسة العلمية، خاصة في مجال العلوم الاجتماعية والأنتروبولوجية.

موضوع فلسفة سعادة، هو الإنسان والقيم الإنسانية، لا منشأ الكون والقضايا الميتافيزيقية.

يقول بهذا الخصوص: "لسنا من الذين يصرفون نظرهم عن شؤون الوجود إلى ما وراء الوجود. بل من الذين يرمون بطبيعة وجودهم إلى تحقيق وجود سام جميل في هذه الحياة وإلى استمرار هذه الحياة سامية جميلة." (سعادة، الأعمال الكاملة المجلد الثامن 1948-1949، 2001، صفحة 78)

ويعتبر أن المجتمع، وليس الفرد، هو الوجود الإنساني الكامل والحقيقة الإنسانية الكلية.

يقول: "إذا غلط امرؤ في استنتاج أو تأويل أو في حس ما فيصلح غلطه باستنتاج امرئ آخر، أو تأويله أو حسه الصحيح. ويقول أيضا: شرط الحق، في الإنسانية، ليكون حقا، أن لا يعلن نفسه ساعة ويختفي، وأن لا يختزنه العدد الفردي أو المجموعي في نطاقه الخاص فيفنى فيه- أن لا يكون حقا عدديا، بل حقا اجتماعيا لا ينفرد فيه الفرد ولا يستقل به العدد بل يمتد، في المجتمع بلا حدود.

ينظر إلى الإنسان من مستوى فكري جديد، ويرفع بنظره الإنسان من حدود فرديته المنحصرة في إمكانيتها إلى مطلق اجتماعيته المنفتحة على الكون." (سعادة، الأعمال الكاملة المجلد الثامن 1948-1949، 2001، صفحة 174)

واعتبر أن الفلسفات المادية والفلسفات الروحية هي فلسفات جزئية خصوصية وأنانية لا تجلب سوى الخراب والدمار على العالم. هي فلسفات جزئية لأنها لا تنطلق من الوجود الإنساني الحقيقي ومن الحقيقة الكلية التي هي المجتمع –الأمة. وإنما تنطلق من نظرة جزئية هي: الطبقة الرأسمالية أو العمالية، العرق والوهم الكاذب بالنقاء والتفوق العرقي علما أن كل المجتمعات هي مزيج من عدة سلالات. وتنطلق من فلسفة جزئية هي الفلسفة المادية للرأسمالية والماركسية، والفلسفة الروحية عند الفاشية والنازية التي تنظر إلى روحية الأمة وبنائها الروحي دون الأخذ بالاعتبار أساسها المادي.

يفسّر سعادة المصطلح المادي والمصطلح الروحي بالقول: "الأمة أساس مادي يقوم عليه بناء روحي. فكل أمة يجب أن تكون مؤلفة من مادة بشرية هي الأجسام المتسلسلة من بعض العناصر، ومادة طبيعية هي المحيط بجغرافيته وجوّه وحدوده وكنوزه الطبيعية. وعلى هاتين المادتين الأساسيتين يقوم بناء الأمة الروحي الذي يميّزها عن غيرها من الأمم .

الأمم لا تتميّز إلا بروحياتها وحياتها وتقاليدها التي هي نتيجة العمل العقلي ومجرى الفكر. وأما البناء الروحي فهو، على أنه غير منفصل عن الأساس المادي، نتيجة تفاعل عقول أبناء الأم الواحدة وتمكنهم من إظهار رابطة عقلية تربطهم في الشرائع والقوانين والتقاليد الاجتماعية واللغة والأدب والتربية." (سعادة، الأعمال الكاملة المجلّد الأول 1921-1934، 2001، صفحة 453)

لذلك دعا إلى: "ترك عقيدة تفسير التطور الإنساني بالمبدأ الروحي وحده وعقيدة تفسيره، من الجهة الأخرى، بالمبدأ المادي وحده، والإقلاع عن اعتبار العالم ضرورة، عالم حرب مهلكة بين القوة

الروحية والقوة المادية، والتسليم معنا بأن أساس الارتقاء الإنساني هو أساس روحي-مادي (مدرحي) والإنسانية المتفوقة هي التي تدرك هذا الأساس وتشيد صرح مستقبلها عليه. ليس المكابرون بالفلسفة المادية بمستغنين عن الروح وفلسفته ولا المكابرون بالفلسفة الروحية بمستغنين عن المادة وفلسفتها .

إن العالم الذي أدرك الآن، بعد الحرب العالمية الأخيرة، مبلغ الهلاك الذي جلبه عليه قيام الفلسفات الجزئية الخصوصية-الفلسفات الأنانية التي تريد أن تحيا بالتخريب-(تخريب واستغلال الشعوب والمجتمعات الأخرى، إضافة إلى تخريب مجتمعاتها)-فلسفة الرأسمالية الخانقة وفلسفة الماركسية الجامحة، التي انتهت في الأخير بالاتحاد مع صنوها المادية الرأسمالية بقصد نفي الروح من العالم،(نفي الروح أي نفي القوميات)، وفلسفة الروح الفاشستية وصنوها الاشتراكية القومية(النازية) المحتكرة الروح، (العنصرية وادعاء التفوق العرقي والقومي)، الرامية إلى السيطرة به سيطرة مطلقة على أمم العالم وشؤونها-هذا العالم يحتاج اليوم إلى فلسفة جديدة تنقذه من تخبط هذه الفلسفات وضلالها. وهذه الفلسفة الجديدة التي يحتاج إليها العالم- فلسفة التفاعل الموحد الجامع القوى الإنسانية- (ثقافة إنسانية تتشارك فيها جميع الأمم والقوميات على قاعدة احترام حق الشعوب بتقرير مصيرها وعدم التدخل بشؤونها وعدم استعمارها بشكل مباشر أو غير مباشر)، هي الفلسفة التي تقدمها نهضتكم. (سعادة، الأعمال الكاملة المجلد السابع 1944-1947، 2001، الصفحات 179-180)

ويرى أن " السلام الحقيقي الثابت لا يتم إلا على أساس اعتراف كل من الفريقين المتحاربين لشعوب العالم الحرة بحق الحياة كشعوب حرة وليس كشعوب مستعبدة، ويدخل في ذلك عدم الاستعباد الاقتصادي. "(سعادة، الأعمال الكاملة المجلد الرابع 1940-1941، 2001، صفحة 148)

الواقع الإنساني

واقع العالم هو واقع أمم ومجتمعات، والعصر هو عصر تنازع الأمم، عصر تتقيد فيه الأفراد والجماعات بمصير أممها، فإن كانت الأمة ناهضة، راقية، متقدمة في ميدان الحياة كان لأفرادها وجماعاتها مقام وكرامة على نسبة ذلك. والاعتماد على النفس هو فصل الخطاب، فالأمم التي اعتمدت على نفسها وتجهزت بما يدفع عن كيانها بقيت وفازت، والأمم التي علقت آمالها على المقامرة والمضاربة في الشؤون السياسية، معتمدة على قوات ليست في قبضتها وواضعة ثقتها في تدبيرات خارجية سقطت وتلاشت.

(سعادة، الأعمال الكاملة المجلّد الأول 1921-1934، 2001، الصفحات 490-491)

التصادم هو في المصالح والحاجات وليس في المبادئ والنظريات، بل في الحاجة إلى الإكثار من المواد الأولية، والموارد الطبيعية المتولدة والمتزايدة عند الأمم الآخذة برفع مستواها الاقتصادي وزيادة نسلها .

(سعادة، الأعمال الكاملة المجلد الثاني-1935-1937، 2001، صفحة 224)

استغلت دول الغرب الاستعماري بمختلف أنظمتها النعرات الدينية في العالم العربي والإسلامي، ولا تزال حتى اليوم تستخدم هذه النعرات.

ويشير سعادة في مقالاته إلى استغلال المحور الألماني-الإيطالي النعرات الدينية المحمدية والحاج أمين الحسيني وشكيب إرسلان وأمثالهما، وكذلك المحور الإنكليزي-الأميركاني الذي يستغل هذه النعرات عينها. ويقول إن هذه الدعاوات جميعها لدليل على مبلغ احتقار الدول الاستعمارية الكبرى مدارك الشعوب التي لا تزال تجهل ما هو الفرق بين القومية والدين، وبين الأمة والجماعة الدينية وبين السياسة والعقائد الدينية. (سعادة، الأعمال الكاملة المجلد السادس 1942-1943، 2001، الصفحات 408-409)

يحذّر سعادة جميع الأعضاء من الوقوع فريسة للدعايات الأجنبية. ويقول:" إننا نعترف بأن هنالك مصالح تدعو إلى إنشاء علاقات ودية بين سورية والدول الأجنبية وخصوصا الأوروبية. ولكننا لا نعترف بمبدأ الدعاية الأجنبية. يجب أن يبقى الفكر السوري حرا مستقلا أما المصالح المشركة فنحن مستعدون لمصافحة الأيدي التي تمتد إلينا بنية حسنة صريحة في موقف التفاهم والاتفاق.

يجب على الدول الأجنبية التي ترغب في إيجاد علاقات ودية ثابتة معنا أن تعترف في الدرجة الأولى بحقنا في الحياة وأن تكون مستعدة لاحترام هذا الحق." (سعادة، الأعمال الكاملة المجلد الثاني-1935-1937، 2001، صفحة 8)

"نشترط أن تكون كل علاقة لنا مع أية دولة أجنبية قائمة على أساس الاعتراف بسيادتنا القومية. إن الذين قبلوا ويقبلون سيادة فرنسا وبريطانيا على أمتنا ووطننا، هم أنفسهم يقبلون كل سيادة أجنبية أخرى، وهم المسؤولون عن كل نكبة جديدة تحل بأمتنا ووطننا." (سعادة، الأعمال الكاملة المجلد الرابع 1940-1941، 2001، صفحة 53)

في شروحه للمبدأ الإصلاحي الخامس: "إعداد جيش قوي يكون ذا قيمة فعلية في تقرير مصير الأمة والوطن." يؤكّد سعادة أنّ تنازع موارد الحياة والتفوق بين الأمم هو عبارة عن عراك وتطاحن بين مصالح القوميات. ومصلحة الحياة لا يحميها في العراك سوى القوة، القوة بمظهرها المادي والنفسي. والحق القومي لا يكون حقا في معترك الأمم إلا بمقدار ما يدعمه من قوة الأمة. فالقوة هي القول الفصل في إثبات الحق القومي أو إنكاره.

وكل أمة أو دولة إذا لم يكن لها ضمان من نفسها من قوتها هي، فلا ضمان لها في الحياة على الإطلاق. فالعقود والضمانات والمعاهدات تقوم ما ثبتت المصالح التي تؤمّنها لجميع الأطراف المشتركة فيها. فإذا بطلت المصالح أو انتفى بعضها، نقضت المعاهدة أو الاتفاق أو

العهد. (سعادة، الأعمال الكاملة المجلد الثامن 1948-1949، 2001، صفحة 117و120)

الواقع الاجتماعي

الاجتماع البشري أمر واقع ملازم للبشرية وخصائصه ملازمة لخصائص الإنسان.

الاجتماع صفة عامة في الإنسانية، ولكنّ الإنسانية ليست مجتمعا واحدا. أنها عدة مجتمعات تبعا لانقسام الأرض إلى بيئات وأقاليم متنوعة.

البيئة هي التي تهيئ تكوّن شخصية المجتمع من خلال شكلها وحدودها والإمكانات التي تقدمها ووفق مؤهلات الجماعات البشرية واستعدادها.

"الرابطة الدموية هي الرابطة الأولى. ولكن عوامل الحياة الإنسانية التي قضت بانتشار البشر، سعيا وراء الرزق أو طلبا للنجاة من وجه الأعداء أو اضطرارا لا إرادة فيه، لم تلبث أن جعلت الجماعة البشرية تتكون بعاملي الاقتصاد والاجتماع على أساس الاختلاط الدموي الذي يدمج الجماعات الصغرى بعضها ببعض، ويولّد منها جماعة أكبر شرط أن تتوفر مقومات نشوء الجماعة الكبيرة كالاستقرار وصلاح البيئة واستتباب تهيؤها للتفاعل والتدامج.

أما حيث لا تتوفر هذه المقومات فالحالة الابتدائية تسود ويظل الاجتماع قائما على أساس الرابطة الدموية التي تقتصر على أنواع من الحياة محدودة ولا أمل لها بالارتقاء في مثل هذا النظام." (سعادة، الأعمال الكاملة المجلد الثالث 1938-1939، 2001، صفحة 43)

نشأت الأمة وشخصيتها ونفسيتها وقضيتها في سياق التطور الاجتماعي المستمر. وتطورت الدولة بموازاة هذا التطور وصولا إلى الدولة العصرية دولة الأمة.

شهد التاريخ نموذج دولة المدينة الذي بدأ في سوريا ثم انتقل الى اليونان، ولم يصمد هذا النموذج طويلا، فسقط أمام الدول الإمبراطورية التي سادت معظم التاريخ.

نموذج الدولة القومية الدولة الأمة ظهر في الغرب بعد الثورة الصناعية، وكان عصر الاستعمار الذي جعل من الدولة القومية في الغرب دولة قومية على مستوى مجتمعها وإمبراطورية على مستوى الشعوب الخاضعة لسيطرتها .

عندما طرح سعادة مشروعه النهضوي وتصوره للدولة القومية. كان نموذج الدولة القومية ذات البعد الإمبراطوري مسيطرا في الغرب المتقدم وكان إلى جانبه، نماذج الدول الكلية: الشيوعية والنازية والفاشية.

وانتشر في باقي دول العالم نماذج متنوعة من الدول وأشباهها الحاملة إرث القرون الوسطى واستبدادها، وثقافتها من الدولة الدينية الى الدويلات الطائفية والعرقية .

الدولة القومية الاجتماعية التي يدعو إليها سعادة هي دولة الأمة، لا دولة دينية ولا دولة طائفية ولا دولة عرقية ولا دولة طبقية.

وهذه الدولة تستند إلى الوجدان القومي الذي يعرفّه سعادة بأنه: " أعظم ظاهرة اجتماعية في عصرنا، وهي الظاهرة التي يصطبغ بها هذا العصر على هذه الدرجة العالية من التمدن .

إذ أن هذه الشخصية مركّب اجتماعي -اقتصادي-نفساني يتطلب من الفرد أن يضيف إلى شعوره بشخصيته شعوره بشخصية جماعته، أمته، وأن يزيد على إحساسه بحاجاته إحساسه بحاجات مجتمعه وأن يجمع إلى فهمه نفسه فهمه نفسية متحده الاجتماعي، وأن يربط مصالحه بمصالح قومه، وأن يشعر مع ابن مجتمعه ويهتم به ويود خيره، كما يود الخير لنفسه . (سعادة، الأعمال الكاملة المجلد الثالث 1938-1939، 2001، صفحة 5)

والأمة هي وحدة حياة، لا حاجة إلى أصل واحد معيّن لنشوء الأمة، لنشوء القومية. فالأمة موجودة بتفاعلها ضمن بيئتها ومع بيئتها. (سعادة، الأعمال الكاملة المجلد الثامن 1948-1949، 2001، صفحة 50)

الأمة بدون وطن معيّن لا معنى لها، ولا تقوم شخصيتها بدونه. هذا الوضوح يخرج معنى الأمة من الخضوع لتأويلات تاريخية أو سلالية أو دينية مغايرة لوضع الأمة، ومنافية لمصالحها الحيوية والأخيرة. كل فكرة قومية بلا أساس من وطن يخرج الأمة عن وضع واقعها الاجتماعي. (سعادة، الأعمال الكاملة المجلد الثامن 1948-1949، 2001، صفحة 43)

القومية هي وعي الأمة وجودها. والأمة ليست لغة ولا دينا ما، بل هي واقع اجتماعي-هي مجتمع إنساني وأرضي.

فلو أطلقت لغة واحدة في العالم كله لما جعلت العالم أمة واحدة. ولو أطلقت فيه مذهبا دينيا واحدا لما صار أمة واحدة.

فلا اللغة ولا الدين ولا الاثنان معا يجعلان من الناس أمة واحدة، أي مجتمعا ذا شخصية سياسية. (سعادة، الأعمال الكاملة المجلد الثامن 1948-1949، 2001، صفحة 264)

إن الأمة التي تنشئ نهضتها على الأخوة القومية الحقيقية المتولّدة من الاشتراك الفعلي في الحياة الواحدة في الوطن الواحد، أمة تستغني بالانتساب إلى حقيقتها عن الانتساب إلى أوهامها، فالأوهام تزول ولا يبقى إلا الحقيقة.

إننا أمة ليس لأننا نتحدر من أصل واحد، بل لأننا نشترك في حياة واحدة في وطن واحد يحتم علينا أن نكون إخوانا قوميين متحدين في

عودة إلى الرئيسية

هذه الجامعة الوطنية، التي قلّ مثيلها، من أجل كرامتنا نحن وحقوقنا نحن ومصالحنا نحن ووطننا نحن. (سعادة، الأعمال الكاملة المجلّد الأول 1921-1934، 2001، صفحة 405)

ثمّة ترابط عضوي بين الأمة والوطن، والوطن السوري هو بيئة طبيعية واحدة تقوم عليها وحدة شعبية وأنحاؤها تكمل بعضها بعضا، وصيانة أية جهة من جهاتها ضرورية لصيانة الجهات الأخرى، فالسوريون المقيمون في الجنوب تهمهم الحدود الشمالية كما تهم السوريين المقيمين في الشمال الحدود الجنوبية. وهنالك مراكز في الحدود إذا خرجت من قبضة الجيش السوري عرّضت البلاد كلها لأشد أخطار الفتوحات والاستعمار والذل. وأي اجتياح حربي للخطوط الاستراتيجية الجنوبية أو الشمالية جعل سورية الطبيعية كلها تحت خطر السقوط. أي جيش يحتل أية منطقة صغيرة ضمن نطاق الوحدة الاستراتيجية يمكن اعتباره محتلا البلاد كلها احتلالا استراتيجيا! فيمكننا القول إن الجيش التركي الذي يرابط في كيليكية والإسكندرونة يمثّل احتلالا استراتيجيا لسورية. (سعادة، الأعمال الكاملة المجلد الثامن 1948-1949، 2001، الصفحات 66-67)

الدولة العصرية

يعالج سعادة في كتاب نشوء الأمم في الفصول الخمسة الأولى ما يسميه الأساس المادي للاجتماع البشري وأحواله، هذه الفصول هي:

نشوء النوع البشري-السلائل البشرية-الأرض وجغرافيتها -الاجتماع البشري-المجتمع وتطوره.

وعندما يصل الى الفصل السادس المخصص للدولة يقول: "تقصينا فيما دوّناه آنفا الأساس المادي للاجتماع البشري وأحواله، وبهذا الفصل نبدأ بدرس البناء النفسي لهذا الاجتماع.

الدولة شأن ثقافي بحت، لأن وظيفتها، من وجهة النظر العصرية، العناية بسياسة المجتمع وترتيب علاقات أجزائه في شكل نظام يعيّن الحقوق والواجبات إما بالعرف والعادة - في الأصل- وإما بالغلبة والاستبداد. (سعادة، الأعمال الكاملة المجلد الثالث 1938-1939، 2001، الصفحات 73-74)

الدولة تعبر عن حاجة المجتمع الى التنظيم، بغض النظر عن طابع الغلبة والاستبداد الذي يرتبط بنشوء الدولة التاريخية.

نشأت الدولة بعامل الحياة الإنسانية. وأصبحت هي شخصية المجتمع وصورته، يعظم بعظمتها ويصغر بصغرها.

الدولة هي التي صهرت جماعات متباينة في بوتقة واحدة وكوّنت من المزيج وحدة نظامية حيثما مكّنت من ذلك البيئة ووجهة الحياة . (سعادة، الأعمال الكاملة المجلد الثالث 1938-1939، 2001، صفحة 87)

تكمن أهمية الدولة بما تنطوي عليه من حقوق. فلا بد لنا من إلقاء نظرة على بداءة الحقوق لكي نتمكن من فهم نشوء الدولة وتطورها في ظروفهما. يجب أن ننظر إلى الحقوق إذا كنا نريد أن نحصل على تحديد حقيقي للدولة. (سعادة، الأعمال الكاملة المجلد الثالث 1938-1939، 2001، صفحة 75)

يعيد سعادة، فكرة الديمقراطية العصرية، التي تعني تمثيل الإرادة العامة في الحكم، إلى الثورتين الأميركية والفرنسية. وهذا يعني جعل الإرادة العامة للشعب، للأمة. (سعادة، الأعمال الكاملة المجلد الثامن 1948-1949، 2001، صفحة 89)

ويفسّر عوامل هذه الظاهرة، بنشوء المدن ونموها والعمل الصناعي والاتجار التي أوجدت المحيط والجو الصالحين لحرية العمل وتبادل الأفكار والمعارف. إن المدينة كانت دائما أصلح مكان لنمو الفكرة الديمقراطية. وهي المكان الوحيد الذي يمكن أن تتمركز فيه الحياة السياسية.

وظهرت الحركات الاجتماعية والسياسية التي أعدّت لعصر جديد هو عصر الديمقراطية ونشوء القومية، التي عيّنت شكل دولة البلاد العصرية ووسعت دائرة المساهمة في الدولة أو معدوديتها إلى حدود لم تكن معروفة من قبل .

الدولة الحديثة قائمة على مبدأي القومية والديمقراطية. (سعادة، الأعمال الكاملة المجلد الثالث 1938-1939، 2001، صفحة 105)

الدولة الديمقراطية هي دولة قومية حتما، فهي لا تقوم على معتقدات خارجية أو إرادة وهمية، بل على إرادة ناتجة عن الشعور بالاشتراك في حياة اجتماعية اقتصادية واحدة. الدولة أصبحت تمثل هذه الإرادة. فتمثيل الشعب هو مبدأ ديمقراطي قومي لم تعرفه الدول السابقة.

تحت عامل القومية الظاهر في تولّد روح الجماعة والرأي العام، تغيّر معنى الدولة من القوة الحاكمة المستبدة إلى سيادة المتحد وحكمه نفسه. والوسيلة التي مكّنت المتحد من تحقيق هذا المبدأ الجديد هي التمثيل السياسي الذي مكّن من الفصل بين السلطة الاشتراعية والسلطة التنفيذية وترجيح كفة السلطة التشريعية، لأنها تمثل إرادة الشعب.

الدولة القومية تتميّز بأنها لم تعد دولة تجبل الأقوام جبلا في مساحة الأرض التي تبسط ظلها عليها، لأنها أصبحت تصطدم بإرادة متحدها هي، قوميتها، وإرادة القوميات الأخرى. فإذا اتسع نطاق الدولة حتى جاوز نطاق الأمة أصبحت الدولة إمبراطورية أو استعمارية كما هي الدول الأولى الآن. كانت الدولة قبل نشوء القومية إرادة خصوصية تفرض نفسها على المجموع الذي تشمله، أما بعد نمو القومية فقد أصبحت النظام والهيئة الممثلين لإرادة الأمة.

(سعادة، الأعمال الكاملة المجلد الثالث 1938-1939، 2001، الصفحات 111-112)

عودة إلى الرئيسية

يعرّف سعادة الدولة بأنها جمعية الشعب الكبرى، وكل فرد من أفراد الشعب مشترك في حياة الدولة هو عضو في الدولة.

إن لكل حكومة حدا تقف عنده فيما يختص بأمر تقرير المصير العام الأخير الذي هو مصير الشعب، لا مصير الحكومة. وكل حكومة تحاول أن تربط مصير الشعب بمصيرها هي تكون حكومة خائنة مصلحة الدولة. والحكومة التي تمنع أعضاء الدولة من التفكير في مصير دولتهم ومن استعمال حقوقهم المدنية والسياسية في تقرير هذا المصير حكومة قد تجاوزت حدودها وخرقت حرمة المبادئ التي تقوم هي نفسها عليها وعصت إرادة الشعب الذي له وحده حق تقرير مصيرها ومصيره .(سعادة، الأعمال الكاملة المجلد الثاني-1935-1937، 2001، صفحة 107)

يرى هارولد لاسكي أن التمييز بين الدولة والحكومة هو من المبادئ الأساسية في علم السياسة، فالحكومة هي وكيل عن الدولة إذ أنها تقوم بتنفيذ أغراضها وهي ليست في حد ذاتها السلطة الإلزامية العليا وهو التعريف الذي يعطى للدولة، ولكنها الجهاز الإداري الذي يقوم بتنفيذ أغراض الدولة. وعلى ذلك إذا تخطت الحكومة حدود السلطة الممنوحة لها فإنها قد تحاسب على ذلك.

والواقع أن وسائل الحد من سلطة الحكومة مثل الدساتير المكتوبة وقوانين حقوق الأفراد ومبدأ فصل السلطات وغيرها من الوسائل، ما هي إلا أساليب أوحت بها الخبرة لمنع استغلال الحكومة للسلطة التي تمنحها لها الدولة، وذلك لأن كل حكومة تتألف من أشخاص ليسوا معصومين من الخطأ إذ أنهم قد يتعمدون استغلال سلطتهم في سبيل تحقيق أغراضهم الخاصة .(هارولد، الطبعة الثانية ترجمة 2012، صفحة 20-21)

الحقوق السياسية

ترتبط الحقوق بالدولة ذات السيادة الحقيقية والاستقلال الصحيح والتي لا تستند إلى نفوذ أجنبي.

على أساس وحدة اجتماعية صحيحة. يمكن إنشاء دولة قومية صحيحة وتشريع قومي اجتماعي مدني صحيح، ففيه أساس عضوية الدولة الصحيحة وفيه يؤمّن تساوي الحقوق لأبناء الأمة، دون أي تمييز على أساس الدين أو الطائفة والمذهب أو العرق أو اللغة أو الجنس.

إن التساوي في الحقوق والتوحيد القضائي هما أمران ضروريان لنفسية صحيحة موحدة. (سعادة، الأعمال الكاملة المجلد الثامن 1948-1949، 2001، صفحة 73)

لا معنى للتصويت إذا كان على أساس طائفي أو شخصي وبغياب الأحزاب والبرامج السياسية،

وإذا كانت دوافعه المنفعة الفردية أو العائلية أو الطائفية. ولا قيمة ديمقراطية له إذا لم يستكمل شروطه.

المنافع الخصوصية المستعجلة لا يمكن أن تكون أساسا للسيادة القومية وحفظ المصالح العامة. حتى الأمم العريقة في الديمقراطية كثيرا ما تكون فريسة في كثير من المصالح للشعوذات التي يقوم بها مهرة متخصصون في استخدام المبادئ العامة. ولكن قضية الشعب عندنا ليست فقط في الأساليب، بل في الأساس. في العقائد الأساسية ومعتقديها. (سعادة، الأعمال الكاملة المجلد الثاني-1935-1937، 2001، صفحة 194)

ينتقد سعادة واقع المجلس النيابي في لبنان لأن أساليب التمثيل غير صالحة لأنها تجعل التمثيل للطوائف بدلا من الأحزاب، وللأشخاص بدلا من البرامج الحزبية. (سعادة، الأعمال الكاملة المجلد الثاني-1935-1937، 2001، صفحة 13)

ويقول بوجوب فسح المجال للأحزاب لأن الأحزاب هي الطريقة الوحيدة لجعل النظام البرلماني صالحا لتمثيل مصالح الدولة وإرادتها. (سعادة، الأعمال الكاملة المجلد الثاني-1935-1937، 2001، صفحة 139)

إن الدولة التي تمنع فيها حرية إبداء الرأي والاجتماع وتأليف الأحزاب السياسية دولة لا قيمة تمثيلية لمجالسها النيابية (سعادة، الأعمال الكاملة المجلد الثاني-1935-1937، 2001، صفحة 87)

الديمقراطية التعبيرية

يطرح سعادة ما يسميه الديمقراطية التعبيرية بديلا عن الديمقراطية التمثيلية، ويقول:

إن الديمقراطية الحاضرة قد استغنت بالشكل عن الأساس، فتحولت إلى نوع من الفوضى لدرجة أن الشعب ذاته أخذ يئن من شلل الأشكال التي أخذت على نفسها تمثيل الإرادة العامة. العودة إلى الأساس والتعويل على "التعبير عن الإرادة العامة" بدلا من "تمثيل الإرادة العامة" الذي هو شكل ظاهري جامد.

الإرادة العامة إذا لم تجد "التعبير" الصحيح في فكرة واضحة وقيادة صالحة تصبح عرضة لأن تقع فريسة للمطامع والمآرب التمثيلية.

التمثيل شيء جامد يتعلق بما حصل، أما التعبير فغرضه الإنشاء وإدراك شيء جديد.

يجب إنقاذ الديمقراطية من الهلاك. وذلك بإزالة ما دخل إليها من الفساد، وإدخال تفكير ينطبق على ما وصل إليه الناس من العلم والمعرفة، فتصير صالحة لنفع الإنسان وتكفل حقوق الإنسان من كل مهاجمة وتعدّ. (سعادة، الأعمال الكاملة المجلد السابع 1944-1947، 2001، صفحة 38و41)

الديمقراطية التعبيرية هي إزالة الخلل والفساد الذي لحق بالديمقراطية نتيجة الفلسفة الفردية الليبرالية المتوحشة التي سهّلت للطبقة الرأسمالية استغلال الطبقات الشعبية والأمم الضعيفة ونهب مواردها وخيراتها.

عودة إلى الرئيسية

هذه الديمقراطية تتحقق بنظرنا من خلال:

1- أحزاب وطنية تنطلق من مفهوم وحدة الأمة كهيئة اجتماعية واحدة، وهي قاعدة تحديد المصالح الأساسية، ومن اعتبار مصلحة الأمة فوق كل مصلحة.

لا يجوز أن يقوم ضمن الأمة أحزاب أو تكتلات، على أساس مصالح جزئية: عرقية دينية، طائفية، طبقية أو مناطقية.

2-يجب تحديد شروط ومؤهلات من يحق لهم الترشح لمناصب في الدولة وبشكل خاص للنيابة والوزارة، تضمن امتلاكهم القدرة في فهم ومعالجة قضايا الشأن العام والقضايا القانونية والسياسية التي سيتولونها.

3- التحقق من مناقبيتهم ومسلكياتهم التي تثبت وعيهم القومي وعملهم لمصالح المجموع وليس لمصالح فردية أو فئوية، وذلك من خلال اختبارهم ضمن المؤسسات والأطر الحزبية التي ترشحهم لهذه المناصب.

4-تربية وتثقيف المواطنين على الاهتمام بالشأن العام والمصالح العامة.

5-تحديد الشروط التي تكفل نزاهة العملية الانتخابية وتمنع المال الانتخابي وتضمن تساوي المرشحين في الوصول إلى وسائل الإعلام.

6- منع الاحتكارات والتكتلات الاقتصادية

7- حرية الوصول إلى المعلومات والتواصل الإعلامي ومنع احتكار المؤسسات الإعلامية

8-منع التواطؤ بين أصحاب المصالح الاقتصادية والطبقة السياسية وتجريم أي عمل من هذا النوع.

9- ضمان حقوق المواطن في التعليم والصحة والعمل والنصيب العادل من الإنتاج، والحق في مستوى لائق من المعيشة.

10-ضمان تجدّد الطبقة السياسية باستمرار وعدم تحولها إلى طبقة مغلقة.

العدل الاقتصادي

يركز سعادة على وحدة المجتمع ووحدة العمل ضمن المجتمع. وعلى دور الدولة في حماية المجتمع والوعي القومي الذي يقضي على التنافر بين عناصر الأمة والناجم عن وضع اجتماعي تتنازعه العصبيات البدائية القائمة على أساس ديني أو طائفي أو دموي. مشددا على مفهوم الأخوة القومية وتربية المواطنين على الولاء القومي وإعطاء الاهتمام اللازم لمصلحة المجموع.

"الدولة القومية تشمل المجتمع القومي كله، ذا الدورة الاقتصادية الكاملة التامة وتمثل مصالح شعب تام كامل .هذه الدولة تنظر في حالة المجتمع الاقتصادية وفي النظام الاقتصادي الذي يوفر الاستقرار والطمأنينة والارتقاء وزيادة الخير. لا يمكن ترك مساحات واسعة من الأرض في أيد فردية، يتصرف الفرد بها وفاقا لنظرة فردية محضة، بصرف النظر عن أية فكرة اجتماعية أو معنى أساسي عام." (سعادة، الأعمال الكاملة المجلد الثامن 1948-1949، 2001، صفحة 103)

الصراع القومي الاجتماعي هو صراع مزدوج، ضد الإقطاعيين والرأسماليين المتحالفين مع الإقطاع والرأسمال الدوليين. التوحّد بقوميتنا ووضع مواردنا تحت سيادتنا يضمنان لنا الخير والهناء بتوزيع الإنتاج القومي توزيعا عادلا. وإن أول حق من الحقوق الطبيعية والاجتماعية لكل مواطن هو حق العمل والإنتاج. (سعادة، الأعمال الكاملة المجلد الثامن 1948-1949، 2001، صفحة 357و358)

في مقال بعنوان "العقيدة السورية القومية الاجتماعية وبحث الديمقراطيين عن عقيدة،" يشير سعادة إلى أهمية التصريحات التي أدلى بها بعض المسؤولين البريطانيين، المطالبة بتحويل السياسة الديمقراطية إلى "ديمقراطية اقتصادية" وأن لكل عضو من أعضاء الدولة الحق في "ستندرد"، أو مستوى معيشة لائقة، معيّن يشمل الصحة والنظافة ووسائل الراحة .

وأشار أيضا إلى أهمية مقالات أستاذ العلم السياسي هارولد لاسكي، والدعوات والخطب التي ألقيت تحت ضغط الحرب والداعية إلى حل مشاكل التصادم بين العمال والرأسماليين، وتكوين عقيدة للمستقبل يحارب الشعب من أجلها.

يدعو هارولد لاسكي إلى تدخل الدولة لحماية المجتمع من نتائج التنافس الحر غير المقيّد بين المصالح الخاصة وما قد يؤدي إليه من نتائج سلبية .(هارولد، الطبعة الثانية ترجمة 2012، صفحة 40)

يقول سعادة في هذا المقال أن الديمقراطية التي خبرتها الشعوب المتمدنة، حتى اليوم، لم تتمكن من حل الأضاليل الاجتماعية-الاقتصادية التي نشأت مع تقدم عهد الآلة. فقبل الحرب العالمية الثانية، كانت أوروبة وأميركة ما عدا روسية وألمانية وإيطالية، تعيش في ظل الديمقراطية. ولكن شعوبها كانت متعبة، رازحة. وبلغت أوروبة بديمقراطيتها الفاسدة حضيض الفوضى. والديمقراطية الرأسمالية، أصبحت كابوس العامل والفلاح.

وهذه الديمقراطية سهّلت، للمحافظين الإقطاعيين، والرأسماليين، في بريطانية، والرأسماليين في الولايات المتحدة، الوصول إلى ثرواتهم الفاحشة من أسهل الطرق.

ويقول عن حزبه أنه الوحيد، من بين جميع الأحزاب التي نشأت في العقود الأخيرة في أوروبة وأميركة، الذي أوجد **عقيدته الاجتماعية** منذ أول تأسيسه.

فوضع المبدأ الإصلاحي الرابع، وهو: "إلغاء الإقطاع وتنظيم الاقتصاد على أساس الإنتاج وإنصاف العمل وصيانة مصلحة الأمة

والدولة." ويشير أيضا إلى النظريات الاجتماعية الاقتصادية، من كارل ماركس وأنغلز إلى الاجتماعيين الاقتصاديين الجدد، التي ألقت نورا قويا على مشاكل المجتمع الإنساني الاقتصادية. ولكن الاشتراكية، لم تتمكن من حل القضايا الإنسانية الاجتماعية المعقدة. وهنا تأتي أهمية الفلسفة السورية القومية الاجتماعية، التي تقدّم نظرات جديدة في الاجتماع، بأشكاله النفسية والاقتصادية والسياسية، وتقدّم النظرة الجامعة للمذاهب الإنسانية المتنافرة. (سعادة، الأعمال الكاملة المجلد السادس 1942-1943، 2001، الصفحات 91-98)

تنظيم الاقتصاد القومي على أساس الإنتاج هو الطريقة الوحيدة لإيجاد التوازن الصحي بين توزيع العمل وتوزيع الثروة. كل عضو في الدولة يجب أن يكون منتجا بطريقة من الطرق. الإنتاج هو الأساس الهام للاقتصاد القومي. وبدون الإنتاج لا يمكننا مطلقا التفكير برفاهية الشعب. على أساس الإنتاج فقط يمكن النظر في إيجاد العدل الاجتماعي الحقوقي بين الذين يشتركون في الإنتاج .

الإنتاج أساسا هو المفتاح للقضية الاقتصادية كلها. وبدون الإنتاج لا يمكننا أن نحل مشكلة واحدة من مشاكل الاقتصاد في مجتمعنا.

كان الإنتاج قديما يقوم على عمل واحد (فرد) أو عمل عائلي. في تلك الحالة كان الاقتصاد شيئا لا قوميا، فرديا.

في الإنتاج الفردي لم تكن هنالك حاجة إلى نظر الدولة. لم تكن هنالك دولة قومية بالمعنى الصحيح ولم تكن هنالك حاجة إلى النظر في نظام اقتصادي، يمكن أن يشرّع له الشرع أو يجب أن تسن له القوانين. الحالة التي تتوجب ذلك هي حالة الاقتصاد الاجتماعي أو القومي الاجتماعي، الذي يعني الإنتاج والتبادل الخارجي، وليس التبادل الداخلي.

لا يمكننا التفكير بأي نتيجة اقتصادية متقدمة للشعب إلا على أساس وحدة سورية الاقتصادية وخصوصا الزراعية. (سعادة، الأعمال الكاملة المجلد الثامن 1948-1949، 2001، الصفحات 104-106)

الرأسمالي عندنا أشد الناس ابتعادا عن الاهتمام بأية قضية قومية أو وطنية أو بأي مصير للجماعة القومية. إن تخطيطه تخطيط فردي محض والمصلحة مصلحة فردية محضة، ولذلك لا يحجم حتى عن التحالف مع أي رأسمال أجنبي مجموعي ضد مصلحة المجموع الذي هو أحد أفراده.

الرأسمال الفردي الآخذ في أن يزداد أمام أعيننا في هذه البلاد ويسيطر على مصير هذه البلاد والشعب، هو من أسوأ حالات الرساميل في العالم على الإطلاق.

لكي يمكن أن ننظر في حالة العمل والعمال والرأسمال يجب أن نصل إلى الطور الصناعي وإنا بدون شك نرى أنه لابد للدولة القومية المقبلة من أن تسير في **إيجاد حالة صناعية في هذه البلاد تخرج الأمة من حالة الرق للنظام الرأسمالي القائم على الصناعة الكبرى في الأمم المتقدمة.**

إن الأمة التي تبقى في حالة زراعية محضة تبقى حتما مستعبدة للأمة التي هي منظمة صناعيا تنظيما عاليا يمكنها من إحداث الآلات الصناعية والحربية لإخضاع أي شعب لا يخضع لأحكامها الاستبدادية. (سعادة، الأعمال الكاملة المجلد الثامن 1948-1949، 2001، صفحة 110)

النظر إلى الإنتاج كشيء قومي، المصلحة فيه للشعب، للمجتمع، للأمة، وليس للأفراد كأفراد.

إن **الإنتاج المشترك هو حق عام لا حق خاص**. والرأسمال هو ضمان استمرار الإنتاج وزيادته، هو بالتالي، وبما أنه حاصل الإنتاج، ملك قومي عام مبدئيا، وإن كان الأفراد يقومون على تصريف شؤونه بصفة مؤتمنين عليه وعلى تسخيره للإنتاج. من هذا يعني أننا لا نرمي إلى إبادة الملكية الشخصية كملكية عملية، ولا إلى أخذ الرأسمال من أيدي الأفراد رأسا ونزع حق التصرف من أيديهم، ولكن يعني أن الأفراد الذين يتصرفون الآن بالرأسمال تصرفا فرديا يتصرفون به تحت إشراف الدولة لضبطه وتوفيقه، لأنهم مبدئيا مؤتمنون عليه ائتمانا من قبل المجتمع، يبقي لهم قوة الاستنباط والتفنن لإنتاج ما يشعرون بأنفسهم الكفاية لإنتاجه، ويتصرفون بحرية ضمن شروط تضعها الدولة. ولكن يكون من حق الدولة أن تنظم للأفراد وتحدد لهم وتسنّ القوانين اللازمة لضبط الإنتاج وتقسيم العمل وتوزيع الإنتاج الحاصل من العمل، فلا يعود الرأسمالي الفردي من جهة حقوقية حرا أن يتصرف تجاه العمال وتجاه الذين يستأجرهم أو يستأجر منهم الأرض أو ما شاكل ويفعل ما تمليه مصلحته الفردية بصرف النظر عن مصالح المشتركين معه في الإنتاج والذين يجب أن يكون لهم حق في نصيب من الإنتاج .

الاشتراك في الإنتاج اشتراكا فعليا شرط الاشتراك في الحق العام. غير المنتج لا يمكن أن يعامل معاملة المنتج. (سعادة، الأعمال الكاملة المجلد الثامن 1948-1949، 2001، الصفحات 112-113)

المراجع

أنطون سعادة. (2001). *الأعمال الكاملة المجلّد الأول 1921-1934*. بيروت: مؤسسة سعادة للثقافة.

أنطون سعادة. (2001). *الأعمال الكاملة المجلد الثالث 1938-1939*. بيروت: مؤسسة سعادة للثقافة.

أنطون سعادة. (2001). *الأعمال الكاملة المجلد الثامن 1948-1949*. بيروت: مؤسسة سعادة للثقافة.

عودة إلى الرئيسية

أنطون سعادة. (2001). *الأعمال الكاملة المجلد الثاني-1935-1937*. بيروت: مؤسسة سعادة للثقافة.

أنطون سعادة. (2001). *الأعمال الكاملة المجلد الخامس 1941-1942*. بيروت: مؤسسة سعادة للثقافة.

أنطون سعادة. (2001). *الأعمال الكاملة المجلد الرابع 1940-1941*. بيروت: مؤسسة سعادة للثقافة.

أنطون سعادة. (2001). *الأعمال الكاملة المجلد السابع 1944-1947*. بيروت: مؤسسة سعاد للثقافة.

أنطون سعادة. (2001). *الأعمال الكاملة المجلد السادس 1942-1943*. بيروت: مؤسسة سعادة للثقافة.

بارنتي. (2005). *ديمقراطية للقلة -ترجمة*. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

تيرنس بول-ريتشارد بيللامي. (2009). *الفكر السياسي في القرن العشرين-موسوعة كمبردج للتاريخ-المجلد الثاني*. القاهرة: المركز القومي للترجمة.

تيرنس بول-ريتشارد بيللامي ترجمة مي مقلد. (2009). *الفكر السياسي في القرن العشرين-موسوعة كمبردج للتاريخ-المجلد الأول*. القاهرة: المركز القومي للترجمة.

روبرت ماكيفر - ترجمة حسن صعب. (الطبعة الثانية 1984). *تكوين الدولة*. بيروت: دار العلم للملايين.

شترايز جوزيف. (1982 ترجمة). *الأصول الوسيطة للدولة الحديثة*. بيروت: دار التنوير.

لاسكي هارولد. (الطبعة الثانية ترجمة 2012). *الدولة نظريا وعمليا*. القاهرة--لندن 1937: الهيئة العامة لقصور الثقافة-وزارة الثقافة.

ماكس فيبر. (2011). *العلم والسياسة بوصفهما حرفة-ترجمة جورج كتورة*. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

مطالعة حول رواية الدكتورة فاتن المر: "حيث يبدأ الصدع"

بقلم الرفيق الدكتور رامز حوراني*

تعريف الرواية

الرواية في الأدب سرد نثري، خيال طويل، يجتمع فيه عدة عناصر في وقت واحد، مع اختلافها في الأهمية النسبية، باختلاف أنواع الرواية. وهذه العناصر هي: الحدث – التحليل النفسي – تصوير المجتمع – تصوير العالم الخارجي – الأفكار – العنصر الشاعري.

والرواية نص نثري متخيّل، سردي غالباً، يدور حول شخصيات متورطة في حدث مهم. من خصائصها العامة ما يلي:

1- قصّ نثري طويل
2- المادة قد تكون مأخوذة من الواقع، أو من التاريخ في بناءٍ روائي متخيل.
3- يؤدي هذا القصّ راوٍ موضوعي من منظوره.
4- يؤدّي القص بلغة دقيقة الأداء، سهلة الإيصال.
5- يتتبّع الراوي تفاصيل تطور حدثٍ ينطلق من فقد توازن كان قائماً، وينمو بعوامله الداخلية، ليتشكّل في نظام ما/ حبكة.
6- يُمثّل القصّ سعي شخصية إلى التحقيق، تساعدها شخصياتٌ وتناوئها شخصيات أخرى.
7- قد يتحقّق هدف السعي، وقد يُمنى بالإخفاق، وقد تبقى النهاية مفتوحة.
8- يُمثل هدف السعي موضوعاً من موضوعات الوجود.
9- يجري السعي في مكان وزمان معينين
10- يتمثّل القص في بناء روائي متخيّل، ينطق برؤية كليّة روائياً، فيحاكي الواقع ويُمثّله.
11- مهمة الرواية هي الكشف عن ناحية مجهولة من نواحي الحياة. والرواية التي لا تكتشف قطعة مجهولة من الحياة هي رواية ناشزة لأن المعرفة هي الفضيلة الوحيدة للرواية.

تأسيساً على ذلك سوف ندخل في تضاريس هذه الرواية التي نسجت خيوطها عميدة الثقافة في الحزب السوري القومي الاجتماعي الدكتورة الرفيقة فاتن المر بعنوان "حيث يبدأ الصدع" يؤدي القصّ في الرواية خمسة رواة هم ناجي وعاصي ورشاد وغيداء وجانيت.

ناجي الراوي الأول، يروي معظم أحداث الرواية، وهو كما يبدو محورها. يروي ما تمليه عليه ذاكرته من أحداث، تتخذ شكل تداعيات

متقطعة بحوارات بينه وبين المعالج النفسي، وتأخذ هذه الحوارات الحيز الأكبر مما يرويه، أو مما يكتبه في دفتره الأزرق الذي امتلأ، كما نعرف في نهاية الرواية.

هو شاب مسلم، خطف والده، وهو في السنة الأولى من عمره، ورحلت والدته، وهو في سنيّه الخمس، فربته جدته، المشغولة بالبحث عن ابنها المخطوف، فعانى فقد الأبوين والحنان. امتهن التصوير، وعاش حياةً تشبه حياة كثيرٍ من أبناء وطنه الذين يحيون في زمن الخراب. وحدث الفقد الذي أخلّ بالتوازن، إذ كان قريباً من المرفأ، وشاهد الانفجار الكبير الذي قتل وجرح ودمّر، ودفع عصفه جدته إلى مقتلها، فاختل توازنه، وأرشدته معلمته وصديقته جانيت. إلى المعالج النفسي "روجيه" فشخّص هذا حالته بأنها "اضطراب الهوية التفارقي" أو انفصام الشخصية. راح يعالجه "روجيه" من طريق حوارات يُجريها معه، وطلب منه أن يكتب ما خطر له، لأن الكتابة تفضي إلى الشفاء من حالته، فيكتب ما تمليه ذاكرته من تداعيات حرة تتقاطع فيها الأزمنة، وتتضمن حواراته مع المعالج.

الراوي الثاني "عاصي" وهو طفل في الخامسة من عمره، يكتشف أنه يمتلك قوة سحرية، فيعمل على توظيفها في حماية أبيه، وحماية "ناجي" كما يقول قبل نهاية الرواية.

الراوي الثالث "رشاد" يصف نفسه بالمؤرخ، ويكتب كي يكون للأجيال نص يوثّق هذه الحقبة الحساسة من تاريخنا ويعني الحقبة التي استولى فيها الاستعمار الغربي على بلادنا. ومزّقها بعد أن أبرم اتفاقية "سايكس بيكو".

يروي "رشاد" ما حدث، في تلك الحقبة، بوصفه شاهد عيان، لأنه كان مترجماً "لمايكل سايكس".

الراوي الرابع، هو راوية، وهي "غيداء" حبيبة "ناجي" تروي وقائع علاقتها به، وتفصّل في أسباب وظروف قطعه لعلاقته بها.

وتسوّغ تمسكها به بقولها: "أبقى لأن الحب وحده قادر على الاستمرار في زمن الدمار".

الراوي الخامس هو راوية أيضاً، وهي "جانيت". شاركت في الحرب اللبنانية، وكانت حارسة السجن الذي كان والد "ناجي" سجيناً فيه. سمعت غناء المخطوف السجين، وعاينت موته، فغادرت صفوف الميليشيا، وامتهنت التعليم، وعملت على رعاية "ناجي" وعلى تقديم المساعدات للمحتاجين في زمن الخراب.

آراء في الرواية

1- أجادت الكاتبة في جمع المادة القصصية فهي لم تكتف بالمعطيات الحياتية الخارجية فحسب، وإنما أيضاً، اهتمت كثيراً بمعطيات الحياة الداخلية للإنسان: اللاشعور، الحلم... وفي معطيات اللاواقع أي ما هو غرائبي، وفي ذلك كشف لما يرغب الإنسان فيه، وهو تحقيق مقنّع للرغبات المكتوبة.

2- نجحت الكاتبة في توظيف المعلوم للتصويب نحو الأسباب الحقيقية المجهولة، لدى العامة، والتي أدت إلى بدء الخراب في بلادنا وأعني الاستعمار والصهيونية اللذين عملا على التجزئة والاحتلال. وإشعال الفتن المذهبية والطائفية. وما انفجار المرفأ إلاّ حلقة من حلقات هذا الخراب المستمر والمخطط له بعناية.

3- يفيد تعدّد الرواة كأن بنية هذه الرواية حواريةٌ متعددة الأصوات، لكن القراءة المتأنية فيها تفيد أن "ناجي" يودع في دفتره شتات نفسه، ويقدم شهادة عن زمن الخراب، وأنه يعرف القصة التي كتبها "رشاد" في دفتر أزرق يشبه دفتره، ما يشير إلى أنه هو كاتبها ليكتشف حقيقة الحدث صنيع الاستعمار الغربي، الذي بدأ به الصدع في البلاد، والمفضي إلى زمن الخراب والدمار، وجعل أناسه دمى مشلّعة، وفيما يرويه "رشاد" وقائع تفيد بامتلاك القدرة على فضح تآمر اتفاقية سايكس – بيكو وقتل بلفور صاحب الوعد المشؤوم، ما يدل على حلم "ناجي" بامتلاك هذه القدرة، وهو الحلم المتمثّل بشخصية "عاصي" نفسه يتكرّر ويتطور، ذلك أن "عاصي" الطفل، ابن الخمسة أعوام، لا يجيد الكتابة الروائية، فالكاتب هو "ناجي" نفسه، الذي يرغب بأن يملك تلك القوة السحرية التي تتيح له حماية والده، وأن يمحو كل من يعاديه بمجرد رفع يده، وهكذا يبدو أن "ناجي" هو الذي يكتب كل ما يخطر له في دفترٍ، ويكتب قصة بداية الصدع في دفتر آخر، وفيها يحلم بامتلاك القدرة على الخلاص من براثن المستعمر، ويكتب قصة الطفل الذي كانه، ويحلم بامتلاك قدرة تحمي أباه، وتحميه هو نفسه.

أما ما ترويه "غيداء" و "جانيت" فيقول في نهاية الرواية، أنه منح دفتراً أزرق مثل دفتره لكل شركائه في هذه المأساة، وما يكتب

جميعه يفيد أن مأساة وطنه مختلفة عن جميع المآسي، فهذه لها نهايات، أما مأساة وطنه فلا نهاية لها، فهي تتجدد في كل حين من الزمان، وهذا جميعه يفيد أن هذه الرواية تنطق بصوت واحد، هو صوت "ناجي" الذي روى مأساة وطنه بدءاً من استيلاء الاستعمار عليه وتمزيقه، واشتعال الحروب فيه بكل مآسيها، ومنها مأساة المفقودين، وحلول زمن الخراب والدمار الذي أفقد المواطن توازنه، وجعله يحلم بمخلّص يتمثّل بقوة سحرية، تأتي من خارج الواقع الاجتماعي.

إنّ هذا الحلم في الخلاص منافٍ لصيرورة النضال الملقى على كاهل المناضلين المسلحين بالعقيدة القومية، والمتشبثين بأرضهم وشعبهم ووطنهم.

وإنّ هذا الحلم يتجاوز أشرف ظاهرة أبدعها شعبنا وهي المقاومة المتمثلة بالثلاثية الذهبية المقاومة والشعب والجيش. وهذه الثلاثية هزمت العدو الصهيوني وطردته من الأراضي المحتلة في الكيان اللبناني، ومنعت حلفاء هذا العدو من سيطرة الإرهابيين على سوريا الشام حيث سطرت قوى الممانعة ملاحم في البطولة يشهد لها التاريخ المعاصر.

أما من حيث الخصائص الفنية للرواية فإني أقدّر هذه التجربة الإبداعية التي فيها الكثير من البذور الناهدة إلى النماء إذا توفرت لها المثابرة على الاستمرار في خوض التجربة الإبداعية التي تختمر في مجامر عميدتنا فاتن.

د. رامز الحوراني

---

* حائز على دكتوراه في النقد الأدبي وعلم اللغة الحديث من جامعة ليون (فرنسا) الثالثة. محاضر (متقاعد) في الجامعة اللبنانية. له ثلاثة عشر مؤلفاً منها: النقد الأدبي، القديم؛ النقد الأدبي الحديث؛ النقد الأدبي ومنطلقاته الفكرية في فلسفة أنطون سعاده؛ الخ...

النزعة الفردية

بقلم الأمين الدكتور حيدر حاج إسماعيل*

كنا قد عرضنا عرضاً تحليلياً للملامح المدرجة لمفاهيم الأخلاق القومية الاجتماعية في درسين سابقين عن الأخلاق. ومن أهم ما قلناه إذاك، أن الأخلاق عند سعاده هي جهاز للخلق، أي لتحويل القيم الروحية إلى قيم واقعية وأن الأخلاق بطانة لكل نظام وخطة يُرجى لهما نجاح، وأنها، بالنسبة لسعاده، أخلاق قومية اجتماعية، أي أخلاق تنصبّ على خدمة قضية الأمة وتقدمها وارتقائها. كما ميّزت تمييز هاماً بين الأخلاق القومية الاجتماعية التعبيرية النهضوية والأخلاق الرجعية التمثيلية الانحطاطية.

نسأل الآن: ما هو على وجه التخصيص النقيض المباشر للأخلاق القومية الاجتماعية؟ الجواب: إنها الأخلاق الفردية، أو بكلمة أوضح، أنها أخلاق النزعة الفردية. ما هي النزعة الفردية؟ وما هي أخلاقها؟ "**جوهر النزعة الفردية اعتبار الفرد وميوله غاية كل فكر ونهاية كل عمل.**"[1] لذلك، هي بطبيعتها تخالف طبيعة الاجتماع "**لأنها ترمي إلى جعل السيادة في الفرد نفسه وليس في المجتمع ونظامه**"[2]، ولكن الأفراد موجودون في الجماعة، فيترتب على العمل بمبدأ النزعة الفردية، تفكك نظام الجماعة وانعدام كيانها، ذلك لأن "**كيان الجماعة لا يقوم إلّا بخضوع أفرادها طوعاً أو كرهاً لكيانها ونظامها، لا فرق بين أن يكون هذا النظام جيدا أو رديئاً.**"[3] **إنّ تقديم حق الجماعة على حقوق الأفراد** هو في نظر سعاده المبدأ الوحيد الصحيح الضامن لبقاء أية جماعة والذي يجعل ارتقاءها ممكناً. هذا وضع النزعة الفردية من الناحية الاجتماعية.

اما من الناحية الفلسفية فنقول، أن الأفراد يروحون ويأتون، أما المجتمع فباقٍ في أجياله المتعاقبة في مؤسساته المستمرة الناحية. ونقول للذين يزعمون أن الفرد في ذاته هو الحقيقة الإنسانية الكبرى، أن الفرد يزول فما رأيهم بالحقيقة الزائلة؟ وأن الأفراد قد يكذبون، فما رأيهم بالحقيقة الكاذبة؟ سعاده في مقابل هؤلاء قال بفلسفة الإنسان–المجتمع حقيقة إنسانية كبرى حيث الأفراد إمكانيات اجتماعية.

من الناحية النفسية، أظهرت اختبارات الحزب السوري القومي الاجتماعي على أن الأفراد غير الخالصين من النزعة الفردية كانوا مثالاً للنظامية في ظروف ومثالاً للفوضى في ظروف أخرى: عندما تكون تدابير المنظمة ضد غيرهم ولا تمس أشخاصهم، كانوا يتعلقون بنظام المؤسسة مؤيدين حق الجماعة ونظامها العام على الأفراد. ولكن عندما يصطدم حق الجماعة ونظامها العام بهم شخصياً، كنت تراهم يخرجون ويتمردون ويستبيحون حرمة كل نظام بالشذوذ عن كل قاعدة اندفاعاً وراء نزعاتهم الفردية. يقول **سعاده** واصفاً هذه الاختبارات كلاماً هاماً هو: "**ويمكن القول بتأكيد أنه لا يوجد فرد واحد مطرود من**

[1] أنطون سعادة، مقالة: عودٌ على النزعة الفردية في شعبنا– جريدة الزوبعة، آغسطس 1942.

[2] المرجع ذاته.

[3] المرجع ذاته.

الحزب السوري القومي الاجتماعي إلا كان موافقاً قبل طرده على تدابير الطرد بحق غيره لأسباب شبيهة بالأسباب التي طُرد لأجلها هو. أنه كان يقبلها يجد فيها العدل، ولكنه كان يحسب ذاته فوقها، فلما بلغ الحق العام إليه وحاولت المنظمة إقامة الحدّ عليه، تمرّد وانقلبَ وطُرِد".[4]

يُفهم من ذلك، أن نفسية المُصاب بالنزعة الفردية هي نفسية مريضة، Abnormal فلا يضبطها معيار Norm وليس يهديها مقياس، فهي لا تتبع الا شريعة الهوى التي ليست شريعة وقانون الأنانية الذي ليس قانوناً.

من الناحية العملية، نسأل كيف يمكن لذي النزعة الفردية أن يعمل في الحياة؟ كيف يحفظ كيانه؟ كيف يمكن له أن يتقدم ما دام يعتبر نفسه محور العمل ومركز الوجود، والآخرين ليسوا إلا مجرد وسائل وأدوات بجب أن تُسَخّر لأغراضه الذاتية وميوله. إنّ مبدأ النزعة الفردية، من الوجهة العلمية، هو مبدأ الإستحالة ذاتها، أي استحالة الوجود. لأن الانسحاب من العلاقة الاجتماعية الصحية والخروج من دائرة النظام الاجتماعي، هو تماماً الانسحاب من الوجود والخروج من الحياة والوقوع رأساً في دائرة العدم.

ذلك، لأن النزعة الفردية تؤدي إلى التصادم بين الأفراد وانحلال الروابط الاجتماعية، فالموت. ذلك، لأن الأعمال العمومية تحتاج إلى مبدأ آخر، غير التصادم، هو مبدأ التآلف والتعاون والاختصاص والاشتراك، وبكلمة واحدة: هو مبدأ الإتحاد في الحياة. هذا المبدأ هو من إنشاء النهضة القومية الاجتماعية. يقول سعاده: "***ففكرة أن العمل العام دوائر صغرى في دائرةٍ كبرى، وأنّ كل فرد يجب أن يعمل ضمن الدائرة التي يقع فيها اختصاصه وكفاءته، هي فكرة جديدة أوجدها التنظيم القومي الاجتماعي.***"[5] وبكلمة أخرى، هذه الفكرة هي نظرية المؤسسات المتسلسلة في اتجاه مركز واحد والمشتركة في الأخير بالعمل لغرض واحد هو نصر الأمة.

وقد امتُحِنت هذه النظرية في الحزب عبر تاريخه امتحاناً عسيراً. هناك قضية نعمة ثابت وفايز صايغ وصحبهما، وهناك قضية عبد المسيح ورهطه، ولكن النتيجة كانت، في كل حالة، هي خروج الحزب منتصراً بمؤسساته على الأفراد الجامحين ونزعاتهم الفردية. لقد أثبتت النهضة، في كل تجاربها واختباراتها عن صحة العقيدة القومية الاجتماعية وقوة نظامها العمومي على الأهواء الفردية والميعان الأخلاقي.

والحق يُقال، أن سعاده نبّه باكراً، وقبل أن يمرّ الحزب بتلك التجارب، أعني، منذ العام 1942، إلى أهمية إثبات عقلية النظام العام في المجتمع وإرساء مناقب المؤسسات والولاء لقضية الأمة ونبذ القضايا الشخصية. وسعاده لم يكتفِ بهذا التنبيه، بل أشار بصراحة إلى أن تلك الفكرة الجديدة التي وصفها، أعني فكرة الإتحاد في الحياة تآلفاً وتعاوناً واختصاصاً واشتراكاً "***هي فكرة لا تزال غير مفهومة الفهم اللازم حتى عند أكثر القوميين الاجتماعيين أنفسهم، بدون استثناء، المتنورين منهم***" ويرى سعاده أن الذين ظهرت عندهم النزعة الفردية ولم يصهرهم النظام القومي الاجتماعي هم فريقان: " ***فريقٌ لحداثة عهده في الحركة***" وآخرون "***لعدم اختبارهم في النظام والإدارة***".[6]

إنّ أهمّ خصائص المُصاب بالنزعة الفردية هي كما يلي:

- أولاً: ذو النزعة الفردية عديم الشعور بالمسؤولية. إنه لا يتقيّد بخير المجتمع ولا بنظام العام. بل هو متحلل من كل رابطة إنسانية وعامل على تفكك عرى الوحدة الاجتماعية "**غير عابئ بالأضرار التي تلحق بالمجتمع من هذا التفكك**"[7]
- ثانياً: ومن خصائص ذي النزعة الفردية عدم القدرة على التمييز بين العلم والجهل، النظام والفوضى، الإيمان والشك، النهوض والانحطاط، الحق العام والواجب، التدمير والتعمير. يقول سعاده:

[4] المرجع ذاته.

[5] راجع مقالة: "النزعة الفردية في شعبنا"، الزوبعة، 1942.

[6] أنطون سعادة، مقالة: "عودٌ على النزعة الفردية في شعبنا"، جريدة الزوبعة، آغسطس 1942.

[7] أنطون سعادة، "عود على النزعة الفردية في شعبنا"، الزوبعة، بيونس آيرس، العدد 50، 1942/08/15. راجع ايضاً الأعمال الكاملة التي أصدرتها مؤسسة سعاده للثقافة، المجلد السادس 1942-1943.

"فبعض الأفراد تصل به النزعة الفردية إلى حد لا يرون عنده فارقا بين الاختصاصي في فن من الفنون ومن لا علم له به أو بين المعلم والتلميذ، القائد والجندي أو الضابط الصغير."[8]

وتشتد هذه النزعة عند بعض الأذكياء أو بعض الناجحين في ناحية من النواحي. ويضرب الزعيم على ذلك مثل أحد الذين دخلوا الحزب وظنّ أنه يستطيع أن ينافس الزعيم على صلاحياته ويمثل وجهة نظر الحزب بآرائه الخاصة، لأنه قبل دخوله الحزب كان "أديبا" قد ترجم بعض الكتب لبعض المؤلفين "ترجمةً غير منقودة."[9]

- ثالثا: ويمتاز ذو النزعة الفردية بالطموح بغير استحقاق فيتخذ أوضاعاً غير طبيعية ويتطّح لمهام ليست بحجم كفاءاته ويدّعي أموراً فوق طاقته ومؤهلاته، ناسباً كل عظيم لنفسه وكل موهبة لذاته وكل علم إلى معرفته الجاهلة أو القاصرة، ذلك لأن "**النزعة الفردية لا ترى في الكون الا صاحبها ولا تراه إلا جديراً بأرفع المناصب.**"[10]
- رابعا: ومن خصائصه انعدام ثقته بالرؤساء. وفقدان الثقة، بنظر سعاده، "**هو أعظم النكبات التي يمكن أن تحلّ بكيانٍ أو بنظام.**"[11]
- خامسا: وذو النزعة الفردية لا عهود له ولا عقود، ولذلك لا يستحي الفرد أن يحنث بيمينه أو أن يتخلى عن عمل قومي اجتماعي أو سياسي أو غيره لمجرد أن الأمور لم تجرِ حسبما يشتهي أو لأنه يعدّ نفسه أكبر من أن يقبل حكم المنظمة ويعمل بموجبه.[12]
- سادسا: والنزعة الفردية يصفها سعاده بأنها كالنظرة المادية الدنيا تحُولُ دون نشؤ تقاليد جديدة وعرف على اساس المناقب السامية. لذلك اختصَّ ذو النزعة الفردية بالسلبية والمخالفة والتعمير. ومعروف أن التقاليد والأعراف الاجتماعية المناقبية هي، كما يقول سعاده، من أنظمة المجتمع وروابطه الهامة التي تعين الحدود والمواقف التي لا تحددها القوانين. وهي التي تؤلف قوى رأي عام يردع شذوذ الأفراد كما أنها مؤشرات توجه سلوكهم وأفكارهم.

إنّ ازدراء الأنظمة واختبار الأعراف والتقاليد واختبار الشذوذ عنها قاعدة هو، في نظر سعاده " **أسوأ أنواع الانحطاط الاجتماعي وشر ضروب الانحلال القومي.**"[13]

ويرفض الزعيم في تحليله لهذه الظاهرة الخبيثة "**أن تكون كما توهمها بعض الدارسين غير المتعمقين، طبيعة في شعبنا لا تزول أي أن تكون خاصة وجودية من خصائص أمتنا.**"[14] وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن البحث عن علاج لها؟ إذاك تصبح النزعة الفردية قضاء وقدراً لا خلاص منه إلا بالخلاص من الوجود ذاته.

ويترتب على مثل هذه النظرة السطحية المستعجلة نتيجة هامة باهرة هي اليأس من أي حل والتشاؤم من الحياة ذاتها والاستسلام للأمر المفعول وهو بقاء شعبنا خارج النهضة القومية الاجتماعية أي في دائرة التفكك والانحلال والعدم بديل الوحدة والحياة والارتقاء.

وإذا لم تكن النزعة الفردية خاصة وجودية فينا، فما هو أصلها؟ يجيب سعاده: "**إنه النظام الاجتماعي–السياسي القائم والنظام الاجتماعي–الثقافي– التربوي المعمول به في البلاد.**"[15] النظام الأول انحلالي والثاني انحطاطي. في النظام الاجتماعي–السياسي لا نجد مركزاً قيادياً موحداً يدعو إلى الاحترام والتقدير والثقة التامة. كل ما هنالك عبارة

[8] المرجع ذاته.
[9] المرجع ذاته.
[10] المرجع ذاته.
[11] المرجع ذاته.
[12] أنطون سعادة، "النزعة الفردية في شعبنا"، الزوبعة، بيونس آيرس، العدد 49، 1942/8/1. راجع ايضاً الأعمال الكاملة التي أصدرتها مؤسسة سعاده للثقافة، المجلد السادس 1942-1943.
[13] أنطون سعادة، "عود على النزعة الفردية في شعبنا"، المرجع السابق.
[14] أنطون سعادة، "النزعة الفردية في شعبنا"، المرجع السابق.
[15] المرجع ذاته.

عن مراكز سياسية–طائفية ومراجع دينية–مذهبية ومراكز نفوذ اقتصادية–احتكارية. وهذه كلها رجعية تبعث على الاحتقار والازدراء والشك وتجعل الفرد، في النتيجة، يطلب خيره في مخالفتها والتمرد عليها واتباع هوى نفسه. وفي النظام الثقافي–التربوي لا يقوم منهج واحد يسمح بتثقيف النفوس على أسس واحدة يشرف عليه مرجع تعليمي واحد محترم كل الاحترام. فهناك فسيفساء من الثقافات المزيفة والمشوّهة. ثقافات الرجعيين والاستعماريين على تعدد ألوانهم واتجاهاتهم. هذه الثقافات المتضاربة تبعث روح التصادم بين الأفراد التي هي روح النزعة الفردية.

"**النزعة الفردية، إذن، ليست من طبيعة السوري وإن ظهرت متفشية في جيلنا الحاضر.**"[16] إنها عرض للأنظمة الاجتماعية الرجعية الانحطاطية السائدة الآن في بلادنا. إنها مرضٌ طارئ لكن له علاج. وطريق الشفاء يحددها الزعيم بالنقاط التالية:

- أولا: الاعتراف بوجود المرض "مبدأ الوعي الإيجابي."[17]
- ثانيا: رفض المرض ومقاومته بقبول العلاج، حلواً كان أم مُرّاً "مبدأ الوعي السلبي."[18]

ويقول سعاده: "**إنّ المصح الوحيد لهذا المرض كما لغيره من أمراضنا الاجتماعية هو نظام الحزب السوري القومي الاجتماعي.**"[19] ثم يعلن:

> "إن الذين يعطون أنفسهم شهادات وبراءات شخصية مستغنين عن براءة المنظمة وشهادتها هم من الذين لا يريدون الاعتراف بوجود المرض ولا يبغون الشفاء منه. إنهم أصحاب لأنفسهم ولكنهم ليسوا أصحاء للمجتمع.[20]

ويعتبر سعاده النزعة الفردية وأخلاقها أفدح خطراً على الأمة من الاستعمار ويطلب من جميع القوميين الاجتماعيين أن يشنّوا حرباً ضروساً ضدها لأنها كالاحتلال الأجنبي، كائن غريب عن جسم الأمة، يقول:

> "يجب على القوميين الاجتماعيين أن يكافحوا النزعة الفردية مكافحتهم الاحتلال الأجنبي، بل أشد، فخطر الاحتلال الأجنبي من الخارج، أما خطر النزعة الفردية على سلامة المجتمع فمن الداخل."[21]

والجدير بالملاحظة، أن ذوي النزعة الفردية قد حاولوا في تاريخ النهضة القومية الاجتماعية أن يفلسفوا مرضهم الخبيث ويضعوا له عقيدة خاصة اغلب عناصرها مستقاة من كتابات فلسفة غريبة، وذلك للدفاع عن موقعهم في مجابهة الفلسفة القومية الاجتماعية. إنّ مثال فايز صايغ، الذي كان عميداً للإذاعة والثقافة عام 1947 ما يزال مثالاً صالحاً للدرس والتأمل والاعتبار. لقد حاول هذا الرفيق السابق المطرود، أن يبشّر بفلسفة النزعة الفردية وأخلاقها داخل الحزب من مركز مسؤوليته الحزبية في عمدتي الإذاعة والثقافة. وقد اعتمد على كتاب (العبودية والحرية Slavery & Freedom لنقولا برديابيف (Nicolas Berdyaev المطبوع في لندن 1944. أما مرتكزات تلك الفلسفة فيعددها سعاده كما يلي:

- اولا: كل فرد هو شخص منبثق رأساً من الله. يقول برديابيف: "الشخصية الفردية ليست جزءا من المجتمع كما أنها ليست جزءا من السلالة. (ص 26) ويقول أيضا: الشخصية الفردية لا تنشأ من العائلة والنظام الكوني، أنها ليست مولودة من أب وأم، أنها تنشأ من الله فهي تظهر من عالم آخر" (ص 36)[22]

[16] المرجع ذاته.
[17] المرجع ذاته.
[18] المرجع ذاته.
[19] المرجع ذاته.
[20] المرجع ذاته.
[21] المرجع ذاته.
[22] انطون سعادة (هاني بعل)، " مدرسة الأنانية ومحبة الذات تعاليمها الفوضوية الغريبة"، النشرة الرسمية للحركة القومية الاجتماعية، بيروت، المجلد، أ، العددان 3 و4، 1947/12/15 و 1948/01/01. راجع ايضاً الأعمال الكاملة التي أصدرتها مؤسسة سعاده للثقافة، المجلد السابع 1944-1947.

- ثانيا: اتحاد الفرد في المجتمع ونظامه قضاء على شخصيته. لذلك يجب رفض الاتحاد في المجتمع والتمرد على واجباته. فيصبح المرتكز الثاني لهذه الفلسفة هو السلبية الاجتماعية المتطرفة. هذا هو مبدأ "خالف تُعرف وخالف دائماً تُعرَف دائماً".[23]

الشخصية الفردية عند برديابيف، هي المركز الوجودي المطلق. اما ما هو المجتمع وما هو الكون؟ يجيب برديابيف "بأنهما جزءان من الشخصية الفردية."[24]

- ثالثا: ولاء الفرد لنفسه فقط – لشخصيته وحدها يقول: " الشخصية (الفردية) هي غاية في نفسها، لا واسطة لغاية، فهي توجد من ضمن نفسها."[25]

ويقول أيضا: " أنها تخلق نفسها وتوجد بمصيرها الخاص." وهذا إنكار لما تقدّم من أن الشخصية الفردية انبثاق من الله رأسا.[26]

- رابعاً: الفوضى المطلقة. يقول برديابيف: "الشخصية الفردية هي كائن عاقل ولكنها غير مقرر بالعقل ولا يمكن تعريفها بأنها سيارة للعقل". ويضيف هذه الحكمة الفذة عندما يقول:" أنها الشذوذ وليست القاعدة".[27]
- خامساً: فلسفة النعامة: وللنعامة فلسفتان:

(أ) – فلسفة صغرى، عندما تزجّ برأسها في الرمل إذ يدركها الصيّاد.

(ب) – فلسفة فردية كبرى تشرحها القصة التالية. قيل للنعامة: طيري، فقالت أنا لست طائرا إنما أنا جَمَل، فقيل لها: يا نعامة احمَلي، فقالت: أنا لستُ جملاً بل أنا طير.[28]

ومما يقوله برديابيف انه "لا يمكن للشخص أن يكون بكليته عضواً في العالم أو الدولة لأنه عضو في مملكة الله. وهذا مرتبط بالواقع أن الإنسان (الفرد)، كائن ليس في عالمٍ أحد، بل في عالمين."[29]

ويعلّق سعاده على هذه الفلسفة بقوله: " بما أن الفرد يخص عالمين لا عالماً واحداً وجب أن يختار، بحسب مرتكز ولائه لشخصيته، في أية مناسبة، يحسن أن يكون ولاؤه، بعد نفسه، ومن أجل نفسه فقط، لأحد العالمين دون الآخر، فمرةً يكون ولاؤه لعالم الملكوت ومرة يكون لعالم الأرض".

"الطريقة الأخرى لتطبيق فلسفة النعامة الثانية، هي أن يكون المرء بوجهين ولسانين، فلسفة عظيمة وسلوكية باهرة.[30]

هذه هي الفلسفة الغريبة العجيبة للنزعة الفردية التي ليست الا مسلسلاً من الكلام الذي لم يتقدم بأصحابه ولا بقضية الشعب خطوة واحدة في سبيل المعرفة الحقة أو طريق الحياة الجيدة.

حقا، إن النزعة الفردية كما وصفها سعاده هي "من ألدّ أعداء نهضتنا النفسيين"[31] لأنها عدوّ مقيم في داخل النفس وفي داخل الكيان الاجتماعي بفضل الأنظمة الرجعية الانحطاطية وسموم ثقافات الدوائر الاستعمارية والإمبريالية.

* الأمين حيدر حاج إسماعيل، كاتب وباحث له العديد من المؤلفات والمقالات في الفكر القومي الاجتماعي

[23] المرجع السابق.
[24] المرجع السابق.
[25] المرجع السابق.
[26] المرجع السابق.
[27] المرجع السابق
[28] المرجع السابق.
[29] المرجع السابق.
[30] المرجع السابق.
[31] أنطون سعادة، "عود على النزعة الفردية في شعبنا"، المرجع السابق.

مقاربة أولية في كتابة تاريخ الحزب

بقلم الرفيق إبراهيم مهنا*

بعد اجتيازه العقد التاسع من عمره، ومراكمة تسعين عاما من الأحداث الحافلة في كل ميادين الثقافة والسياسية والقتال، تتكرر المواجهة نفسها والسؤال المفصلي يعود ليلح: هل آن الأوان لكتابة تاريخ الحزب؟ هل يمكن لحزب بهذه العظمة أن لا يكون له تاريخ مكتوب؟

والواقع إن سعاده وعى منذ اللحظة الأولى أهمية كتابة تاريخ الحزب، وربما بدأ في تسجيل أحداثه كما جاء في رسالته الى نعمان ضو، لكن الثابت أن هذا العمل رغم أهميته لم يكمل بعد سعاده، وهذا يضعنا أمام استفسار حقيقي حول هذا الإحجام عن إكمال هذا العمل.

لكن المسألة ليست بهذه البساطة، إنها مسألة شاقة، والشاق فيه كثرة أحداثه وتسارعها وتشابكها وتعدد قراءاتها، والأهم الاختلاف في مقاربتها، مما يزيد من صعوبة الإحاطة بها، إضافة إلى جملة من التحليلات والمتابعات المطلوبة وكثير منها لم يتم إجراؤه، إلى غياب كثيرين ممن عايشوا المراحل الإشكالية وغابت معهم تفاصيل كثيرة والتي يمكن أن تفيد العمل التاريخي. كل هذه العوامل ستزيد الصعوبة على كاهل من سيتنكب هذا العمل. إذا لأن كتابة التاريخ عمل شاق، بعكس ما يتبادر الى أذهان كثيرين، فأمام كتابة تاريخ الحزب جملة من الصعوبات والإشكاليات. فما إن يطرح هذا الموضوع حتى يحصل الاشتباك ويسود التوتر. فنحن أمام مفترق حقيقي، فمن قائل إن كتابة تاريخ الحزب ستزيدنا بلبلة وتشرذما نحن بغنى عنها في هذا الوقت الذي تزداد فيه حاجتنا الى مزيد من اللملمة طبعا، وهذه وجهة نظر لا يمكن إغفالها، وينبري آخرون ليقولوا إن هذا هو أهم عنوان ملح يمكن أن يكون ورشة فكرية قد ننهي فيها كثيرا من المسائل العالقة التي أصبحت معوقات جدية لعمل الحزب كجسم واحد. والواقع أن تماسا حقيقيا حاصل بين هذين الاتجاهين، جعل حتى الكلام عن الموضوع محطة إشكالية.

في هذه المقالة سأعرض مقاربة أولية تأسيسية لكتابة تاريخ الحزب وبعض الأسس التي يجب أخذها بين الاعتبار.

السؤال الأول: **ما هي الجدوى من كتابة تاريخ الحزب؟**

السؤال الثاني: **من يكتب تاريخ الحزب؟**

السؤال الثالث: **على أية أسس أو قواعد يكتب تاريخ الحزب؟**

السؤال الرابع: **هل يمكن فصل مسارات محددة كالمسار السياسي مثلا والمسار الدستوري والمسار العسكري وكتابة تاريخ كل منها على حدة؟**

السؤال الخامس: **هل يمكن إجراء رسم بياني لفعالية الحزب ودراسة إشراقاتها ونكوصها ودراسة عوامل الارتقاء وعوامل النكوص؟**

السؤال السادس: **ما هي المعوقات الرئيسية التي تعيق كتابة تاريخ الحزب وهل يمكن تذليلها أو تجاوزها؟**

السؤال السابع: **بما انه من الصعب دراسة تاريخ الحزب دون تحقيب فأي تحقيب يمكن أن نعتمد وعلى أية أسس؟**

عودة إلى الرئيسية

السؤال الثامن: **ما هي أهم الأحداث التي حصلت في تاريخ الحزب وكيف نعيد كتابة تاريخها وتفسيرها؟**

السؤال التاسع: **هل يمكن وضع ضوابط لهاذا العمل التاريخي؟ ضوابط كي لا ينحرف هذا العمل عن أهدافه مثلا؟**

نبدأ بالسؤال الأول: الثابت أن كتابة التاريخ ليس شأنا جماهيريا عاما، والواقع أن معظم ما يروى من تاريخ الحزب، من تاريخ الحزب إلا جملة آراء بعضها أو معظمها متوارث منقول دون تمحيص ولا تحليل ولا تأكيد، وهذا ما يجعل تدخل العامة في العمل تدميريا. والأهم أن الكتابة التاريخية هي عمل اختصاصي بحت له أصوله وله مناهجه مما يجعله خارج متناول العامة. لذلك ستكون القاعدة الأولى نزع الطابع الجماهيري عن العمل الكتابي. إذا من يكتب التاريخ؟ برأيي توكل هذه المهمة الى لجنة تضم ثلة من القوميين الناضجين الموثوقين الكفوئين الموضوعيين. إضافة الى ذلك تحتاج كتابة التاريخ الى مختصين بالتاريخ فيكونون من ضمن اللجنة.

أما عن سؤال **الجدوى من كتابة التاريخ** فمسألة مهمة جدا. فمن الضروري تحديد أهداف محددة. كتابة التاريخ ليست هدفا بذاته. ثمة أهداف من العمل يجب تحديدها وضبطها. الثابت أن كتابة تاريخ الحزب هي الحافز المعنوي الأساسي الذي يضح في نفوس القوميين شيئا من الطاقة. فالحزب منذ تأسيسه أظهر نموذجا فريدا من الصلابة والصمود والبطولة، مما جعله عصيا على الانهيار. فما أن يتعرض لاعتداء حتى يعود ليقوم منه.

أما فعالية الحزب فالثابت أنها قد مرت بمراحل تصعد حينا وتنخفض حينا آخر. هذه مسألة مهمة جدا هي تحديد العوامل التي ساهمت في نمو الفعالية والعوامل التي ساهمت في ضمورها.

أيضا هناك مسألة مهمة جدا وهي أن العقلية المناط بها كتابة تاريخ الحزب يفترض أن تكون عقلية أخلاقية غير ثأرية. الكتابة التاريخية ليست محاكمة. المؤرخ ليس قاضيا ولا مدعي عام. إنها عقلية تفتش عن حقيقة يستفاد منها.

أما العوائق التي تواجه هذا العمل فأهمها:

المعوق الأول هو الوثائق. إن الوثائق الأساسية التي تشمل بنية العمل التاريخي هي بأحسن أحوالها مرويات مكتوبة نذكر منها على سبيل المثال، مذكرات الأمينة الأولى، وشوقي خيرالله، إنعام رعد، إبراهيم يموت، جورج عبد المسيح، عبدالله سعاده، فؤاد عوض، سامي خوري، ومسعد حجل وعبدالله قبرصي وجبران جريج ومصطفى عبد الساتر وبشير موصللي، ويوسف سلامة وهشام شرابي، وغيرهم..... وبعض المقابلات المنشورة على صفحات المجلات والصحف...وهذه جمعيها تحتاج جمعا وتدقيقا وتمحيصا ومقارنة. أيضا يمكن العودة الى البيانات السياسية وهذا ضروري لاستخراج المواقف السياسية و قرارات المحكمة الحزبية في جملة من القضايا المحددة التي كان للمحكمة كلمتها مثل الانقلاب ومقتل الأمينين كمال خير بك وبشير عبيد، وحادثة التمرد وأيضا للأمين لبيب ناصيف جهود كبيرة في جمع وثائق كثيرة ومعلومات قيمة من تاريخ الحزب سبق نشرها، ويمكن العودة الى دراسات في تاريخ الحزب منها دراسة الأمين عايد خطار والرفيق شحادي غاوي، ومن الدراسات الأكاديمية الأمين وليد زيتوني والدكتور عادل بشارة والرفيق غسان مرعي، فتكمل جانبا من الموضوع. أيضا هناك جملة وثائق مهمة سبق للرفيق جان داية أن جمع كثيرا منها من الصحف خاصة وثائق محاكمات الزعيم الثلاث ومعظم تفاصيلها، أيضا بعض الدراسات التي وثقت أحداثا محددة ككتب أنطوان بطرس وكتاب الدكتور عادل بشارة حول فايز الصايغ وكتاب غسان زكريا "الأمير الأحمر" حول مرحلة عبد الحميد السراج وغيرها من الكتب التي اختصت بمرحلة محددة. إن جمع الوثائق وأرشفتها وتصنيفها أولا، ومن ثم تحليل محتواها وتحديد الشخصيات المؤثرة في كل مرحلة والأسئلة البحثية المنوي الإجابة عليها هي من ألف باء العمل التاريخي.

عودة إلى الرئيسية

المعوق الثاني هو كيفية إخراج العقليات التي تشكلت بعوامل الصراعات الداخلية وعوامل الانقسامات الحزبية من فئوية موصوفة في كتابة تاريخ الحزب، فيحصل أن يصبح التاريخ تواريخ.

المعوق الثالث هو المناخ الحالي المشرذم والمشظى والمتوتر والمتمترس خلف متاريس. هذا المناخ ربما لا يساعد البتة على كتابة تاريخ الحزب، بل انه قد يؤلف لحالات صراعية تتردى فيها أهداف العمل وشروطه.

أما الأحداث التي حصلت في تاريخ الحزب فتقسم الى قسمين، أحداث أيام سعاده وأحداث بعد سعاده. الأحداث بعد سعاده هي حادثة المالكي الإنقسام الأول. مرحلة حلف بغداد، ملكارت كتحول، الانقلاب، من الانقلاب حتى بداية الحرب، الإنقسام الثاني، الدخول الى الحرب اللبنانية، إطلاق المقاومة واغتيال بشير الجميل، الإنقسام الثالث، مرحلة ما بعد الطائف. طبعا يمكن التدقيق إذا أمكن زيادة محطات إضافية أو تفصيل بعض منها.

من هذه الأحداث يمكننا تحديد ما هي الموضوعات الإشكالية وإذا أمكن تجاوزها مؤقتا. للجنة أن تقرر أولويات عملها.

أيضا، العمل يحتاج الارتقاء من العمل السردي الى العمل التحليلي. وسأعرض جملة من الأسئلة التحليلية:

من بين تلك الأسئلة التالي:

هل أضاع الحزب فرصا تاريخية في تاريخه؟

هل إن الجهود التي ولدها الحزب كانت كافية لتحقيق إنجازات حاسمة؟

ما كان أثر الإنقسامات على حركة الحزب وفعاليته؟

كيف نفسر قابلية الحزب للإنقسام بالرغم من متانة عقيدته ومتانة مؤسساته؟

لماذا لم تجر دراسة واحدة حول الحزب والحرب اللبنانية، وما كان أثر الحرب اللبنانية على الحزب؟ ماذا حقق الحزب في الحرب وماذا خسر؟ وهل كانت خيارا؟

يمكن طبعا إضافة أسئلة أخرى تفصيلية أو تكميلية قد يتطلبها العمل البحثي.

يبقى أن هذه الأسئلة التفكيكية والمنهجية هي في مقاربة العمل، وربما قد يكتب التاريخ بعد عقد أو أكثر، لكن أهم من الكتابة هي صياغة رؤية موحدة معمّقة منهجية، وتحدد كل ما سبق ذكره، عندئذ تصبح المهمة أسهل على من يتنكّبها. والمهم ذكره أن كتابة التاريخ هي عمل مستمر لا ينتهي، فكلما ظهرت حقائق جديدة، كلما عاد المؤرخ الى مراجعة نصه وهذا من طبيعة العلم والمنطق خاصة أنه تاريخ الحزب والحزب جسم حي ككل الأجسام الحية.

بالخلاصة يجب وضع مسودة أولى لتاريخ الحزب المكتوب، ويجب صياغة أسئلة إشكالية في مسار الحزب ومن ثم إجراء تقييم لتجربة الحزب خلال تاريخه الطويل نسبيا.

*** وكيل عميد الثقافة والفنون الجميلة.**

فلسفة التاريخ عند سعاده

بقلم الأمين الدكتور جهاد نصري العقل

سعاده هو رائد من رواد المدرسة العلمية، يعتبر العقل هو الشرع الأعلى للإنسان، يؤيد الحقائق العلميّة ويعترف بها، يؤمن بالتطوّر في دائرة المعرفة والعلم والحقائق والمنطق. ويشهد كتابه "نشوء الأمم" الاجتماعي العلمي البحت البعيد عن التأويلات والاستنتاجات النظرية، وسائر فروع الفلسفة، على المنهج العلمي الواضح الذي اعتمده سعاده لإرساء قواعد الفهم الصحيح لحقائق الحياة الاجتماعية ومجاريها، من أجل تقوية حيوية الجماعة، وتعزيز مؤهلاتها المادية والروحية للبقاء والارتقاء، والغاية الأساسية عنده هي حياة الأمة وتأمين مصلحتها العليا ومستقبلها وما يجب أن تصل إليه من الارتقاء والبحبوحة والعدل الاجتماعي – الاقتصادي. وعلى ضوء ذلك ندرس العقيدة القومية الاجتماعية وما يتفرع عنها من نظريات في سائر فروع العلوم والفنون، والفلسفات، ومن بينها نظرية "فلسفة التاريخ" عند سعاده.

ممّا تقدّم، سأحاول أن أرسم الخطوط العامة في نظرية "فلسفة التاريخ" عند سعاده، معتمدا في ذلك على دراسة تناولت موضوع "**فلسفة التاريخ عند أنطون سعاده .التاريخ فاعلية إنسانية تعمل ضمن شروط موضوعية**"، نشرها د. أدمير كوريه في جريدة "الديار" وهي دراسة نقدية، غنية بمجموعة من المفاهيم التي تعالج فلسفة التاريخ عند سعاده وهي ليست الوحيدة طبعاً، وفي مفهوم فلسفة التاريخ، بوجه عام، يقول كوريه: "هي نظرة منتظمة للتاريخ الإنساني، تكون التجليات التاريخية في تعاقبها وتطورها واستمرارها خاضعة لمبدأ أو مبادئ تدفع هذه التجليات باتجاه تحقيق غاية محدّدة".

بداية، سعاده لم يضع بحثا نظريا مستقلا متكاملا للفلسفة التاريخية ومنهجيتها وأسسها وأغراضها: "يشرح فيه فلسفته للتاريخ والقواعد المنهجية الخاصة به، والأسس النظرية التي تقوم عليها، والأغراض التي ترمي إلى تحقيقها، كما فعل "هيغل" مثلا في كتابه "فلسفة التاريخ"(33). من هنا، فقد تعمدنا تقصي أسس هذه النظرية في المقالات المتفرقة التي أشرنا إليها سابقا. على أن نستكمل هذه المعطيات بما تضمّنته دراسة كوريه.

سعاده الذي شهد الويلات التي حلّت في العالم منذ مطلع القرن العشرين، خصوصا الحرب العالمية الأولى وتداعياتها المأساوية، ولاسيما على الأمة السورية، ممّا دفعه إلى طرح السؤال في بداية عمله القومي الإنقاذي: ما الذي جلب على شعبي هذا الويل؟

سعاده رأى أنّ نصف ويلات البشرية مردّها إلى النزعات المعادية القومية منها والعنصرية والإقليمية التي سيطرت على التواريخ المحشوة بالفلسفات المغرضة والشروح الموضوعة قصداً لمقاصد توجيهية سيئة، والمنسوخة بأساليب مسمّمة للعقول، والمعمّمة على الرأي العام، والمخصصة لطلاب المدارس، الذين يخرجون إلى الحياة العامة حاملين في قلوبهم الكره والاحتقار للشعوب والجماعات الأخرى. وأورد سعاده على ذلك العديد من الأمثلة التي ذكرناها سابقا. والغريب في الأمر أنّ تلك "الثقافة" التاريخية المغرضة السامة لم تقتصر على روح عداء المؤرخين الأجانب من الغربيين لكلّ ما هو شرقيّ وسوريّ خصوصا، بل تجاوز الأمر إلى تشويه الحقائق بين الدول الأوروبية – الغربية نفسها، خصوصا بين الجارين اللدودين فرنسا وألمانيا، مع

تسجيل انتقال العدوى إلى الأميركيتين، وتحديدا إلى البرازيل (راجع فقرة مقالة "علم التاريخ وسلام العالم").

تصدى سعاده لهذا الواقع المرير، الممنهج في فلسفة التاريخ المغرضة، بإقدامه على "مذهب جريء"، جديد، يتناول الشأنين الإنساني العام، والسوريّ الخاص.

اولاً: في الشأن الإنساني العام:

في هذا الشأن دعا سعاده، إلى:

- عدم مزج الفلسفة بالتاريخ. واعتبار ذلك علم ثابت خالص يعرّض معارفنا للتشويش الذي يحول دون بلوغنا الغاية الشريفة التي نتوخاها، فضلا عن أنّ ذلك الأمر، أي مزج الفلسفة التاريخية بالتاريخ، له نتائج خطيرة مدمّرة على صعيد الكيانين العلمي والإنساني، وعلى المساعي التي يضحي من أجلها المفكرون لصيانة السلام العالمي.
- تجريد التاريخ من النزعات والفلسفات المغرضة المسمّمة للنفوس والعقول، والتي تغني عن معظم مؤتمرات تحديد السلاح وعقد المعاهدات لتجنب الحروب.
- البحث في أساليب إعداد كتب التاريخ للمدارس، وطرق تعليمها، كذلك الأمر بالنسبة إلى التواريخ العامة المخصصة للرأي العام.
- الطلب من المعاهد العلميّة السورية إرسال نداء حار إلى معاهد العلم في العالم كلّها تدعوها فيه إلى عقد مؤتمر عام يقوم بمهمة التحقيق في مؤلفات التاريخ المعمول عليها في التدريس عند جميع الأمم، وتوحيد علم التاريخ العام، ونشر المعلومات التي تبطل تأثير التواريخ الخارجة عن دائرة العلم.
- تنزيه معارفنا فيما يتعلق بأنفسنا وجيراننا والبعيدين عنّا كثيرا، يتوقف عليه سلام العالم، أكثر مما يتوقف على المؤتمرات والمعاهدات السياسية".
- تنظيف التاريخ من الشروح التاريخية غير العلميّة، التي هي، بحدّ ذاتها، جريمة عظيمة يرتكبها المؤرخون، بقصد أو بغير قصد، بتشويه علم التاريخ بما يحشونه من نظريات فلسفية، ليست في الأكثر، في جانب الخير العام وسلام العالم ولا في جانب الحقيقة والحقّ.
- ضرورة الفصل بين معنى التاريخ ومفهوم الفلسفة التاريخية.
- والتاريخ ليس إلا عبارة عن صورة ثابتة لحوادث سابقة لا تعلل عن شيء فيما يختص بفلسفة تلك الحوادث. إذا كنا نستدل بالتاريخ على الماضي، فإنما نفعل ذلك لنعيد إلى ذاكرتنا الحوادث والاختبارات التي مرت بالنوع البشري في الأزمنة التي سبقت زماننا.

أما في مفهوم الفلسفة التاريخية فهنالك ما هو قبل التاريخ وأهم من التاريخ، وهو الحقيقة الفلسفية التي تبحث في مسببات الأمور ونتائجها وتحكم بخيرها للإنسانية أو شرها ونفعها أو ضرّها. مثلا الوجهة الحقيقية الجديرة بالنظر في "الثورة الفرنسية" هي في أسباب تلك الثورة ونتائجها كما أنّ الحكم بنفع تلك الحوادث والاختبارات أو ضرّها وما هو مبلغ تأثيرها في أحوال النوع البشري برمته وكيفية فعلها فيه، غير مختص بالتاريخ بل بالفلسفة التاريخية. ومن الخطأ اعتبار المظهر التاريخي للثورة، من حيث المكان والزمان والظروف التي حصلت فيها يمكن أن يكسبها "صفة سامية" فهذه النظرية فاسدة إذا قرأناها بفلسفة أعمق وبحث أدق وأوسع، وعلّلناها تعليلاً أعمّ وأكمل على حدّ تعبير سعاده.

يقول د. أسد رستم: "وعلى الرغم من العناية بالمصادر وجمعها ونشرها ونمّو الروح البريء من الهوى وتقدم الطريقة العلمية في البحث وازدياد احترامها في جميع الأوساط في أوروبة الغربية والولايات المتحدة ظلّ البعض من رجال التاريخ والفلسفة يندفع بالعاطفة فيضل ويضلل. ولا يزال رجال الفلسفة حتى يومنا هذا يتذرعون بالتاريخ لتأييد نظرياتهم دون تبصر فيما يقرأون أو ترو **في الاستنتاج. وما أكثر الفلاسفة** الذين يجهلون التاريخ، ولا يكلفون أنفسهم مشقة الاستشارة فيجعلون التاريخ ينطق بما ليس فيه".

عودة إلى الرئيسية

ثانيا – في الشأن السوري الخاص:

في خطابه التوجيهي المنهاجي الأول (34)، قال سعاده: "منذ تلك الساعة نقضنا بالفعل حكم التاريخ وابتدأنا تاريخنا الصحيح، تاريخ الحرية والواجب والنظام والقوّة، تاريخ الحزب السوري القومي الاجتماعي، تاريخ الأمة السورية الحقيقي."

نقضنا بالفعل حكم التاريخ، وابتدأنا تاريخنا الصحيح

كانت الغاية عند سعاده من تقصي الروايات التاريخية، من خلال المدارس التاريخية، سواء القومية منها، والأخرى المعادية لحقيقتنا ونقد فلسفة هذه الروايات المعادية والمجحفة بحقّ تراثنا وحضارتنا، هو إنصاف التاريخ السوري، من خلال كشف الحقائق التاريخية وتثبيتها على قواعد علمية، لا تقبل الشك، والعمل على إنصاف التاريخ السوري والحضارة السورية، وتمجيد الأعمال والإنجازات الحضارية العظيمة التي يزخر بها التاريخ السوري منذ فجر التاريخ الجلي. وتدوين تاريخ الأمة بروح علمية موضوعية منصفة، باعتماد الحقائق التاريخية المثبتة، وإسقاط كلّ ما يشوّه الحقيقة التاريخية السورية، وتأسيس نهضة قومية سورية على جوهر روحية مواهب الأمة السورية وتاريخها الثقافي السياسي القومي الرائع، الذي ظهرت فجر معالمه من خلال المدرسة السورية القديمة للتاريخ التي سبقت الفتوحات الأجنبية الكبرى، الفارسية والإغريقية والرومانية، حيث كان مؤرخو سورية يُعتمدون كمثقفين ومعلمين للذين يريدون تدوين التاريخ عن أممهم. الإقريك والرومان اعتمدوا على مؤرخين كنعانيين (فينيقيين) قديما ليؤرخوا عن بلادهم. وقد شهد بهذه الحقيقة المؤرخ الإيطالي المشهور شيزر كنتو في مؤلفه * التاريخ العالمي* " (35).

إلا أنّه بعد الفتوحات الخارجية الكبرى التي تعرّضت لها الأمة السورية على يدّ الفارسيين والإغريق، ولما كان لم يسلم من حريق قرطاجة بعد فتح سيبيو، كتب عن التاريخ السوري، أصبح التاريخ السوري وتأويل التاريخ ورواية التاريخ، وقفا على اتجاه المدرسة الإقريكية– الرومانية التي بخست السوريين حقهم في الإنشاء والإبداع والعمران" (36). وقد تعمّد مؤرخو تلك الدول تدوين التاريخ السوري بروح عدائية، رمت إلى تشنيع كل صفة للشعب السوري بعامل عداوتها نتيجة الصراع العنيف على السيادة البحرية، وقد بلغت تلك العدائية ذروتها ـ مستغلة انهيار الدولة السلوقية السورية ونظامها السياسي والاجتماعي والحربيّ الذي تطوّرت الحياة السورية نحوه منذ القدم وتجلى في قيام الدولة السورية السلوقية التي صارت إمبراطورية عظيمة بعد توحدات سياسية سابقة أقلّ متانة وأسرع عطبا، تعرّض مصير سورية لتقلبات كثيرة في أجيال عديدة كان الفاعل الأقوى فيها دائما إرادة الفاتح الجديدة وسياسته ـ فجزئت البلاد ثم وحدت، ثمّ جزئت حتى ضاعت حقيقتها، وخرجت دورة حياتها عن محورها، وتراكمت على مخلفاتها طبقات الأرض .." (37). وكان من أبرز تداعيات، ممّا تقدّم، تشويه الهوية السورية، وتفتيتها، عبر إطلاق تسميات سياسية جزئية على شخصيتها الواحدة. يقول سعاده:

"بعد تلك الفتوحات سقطت جميع شعوب سورية ودولها وخضعت للأجنبي، وصارت الدول الأجنبية هي التي تسيطر، والمؤرخون الأجانب الذين استقوا منا قديما هم الذين أصبحوا يعرّفون سورية وحقيقتها على الأشكال التي تقرّرها تلك الدول الأجنبية وبالأسماء التي تقرّرها هي لها " (38).

كان التاريخ السوري، هو الضحية الكبرى التي نتجت عن تلك الفتوحات وتداعياتها، إذ انتقلت عدوى تشويه هذا التاريخ من المدرسة التاريخية القديمة المعادية إلى المدارس التاريخية الأجنبية الغربية التي نسخت عمّا سبقها ومسخت تاريخنا من وجهات سياسية، لا علمية، لم تأخذ بالاعتبار لا حقيقة الأمة ولا شخصيتها، متجاهلة قيمها وعطاءاتها الحضارية:

"إنّ تاريخ سورية بعد الفتوحات الأجنبية الكبرى، خصوصا فتوحات الفرس والإقريك والرومان كان يُكتب دائما من أجانب. تعريف البلاد، تعريف حقيقتها، كان يُعين دائما من قبل مؤرخي المدرسة الإقريكية الرومانية للتاريخ الذين كتبوا بروح العداء لسورية والسوريين، وبعدم

إنصاف للحضارة والثقافة السوريتين ... "التواريخ الأجنبية والمؤرخون الأجانب لم ينظروا إلى سورية من وجهة حقيقة الأمة وحقيقة الوطن، بل من وجهة النظر السياسية بلا تحقيق للوضع الطبيعي والاجتماعي. والمصدران اليوناني والروماني هما عدوان تاريخيان للأمة السورية ولاتجاهها التاريخي. ولذلك لا يمكن لهذين المصدرين الأوليين للتاريخ أن ينصفا السوريين في حقيقة نفسيتهم، في حقيقة وجودهم في العالم"(39).

مجاراة التواريخ الأجنبية

جارى معظم المؤرخين والباحثين والتشكيلات السياسية والطائفية من شعبنا، مراجع التواريخ الأجنبية المعادية في تدوين تاريخ سورية، جاهلين أنّ كتابة التاريخ علم وليس مجرّد نسخ الروايات ونقلها، يقول د رستم: "وحسبنا أن نذكر أنّ أكثر مؤرخينا اليوم يزعمونا أنّ كتابة التاريخ لا تتعدى نقل الرواية والإلمام بقواعد اللغة. ففي عرفهم أنّك إذا أجدت الإنشاء وفهمت بعض النصّ فقد هيئت العدة لكتابة التاريخ. ولقد فات هؤلاء أنّ التاريخ هو علم أيضا يعوزه ما يعوز سائر العلوم الأخرى، من طبّ وهندسة وفقه وغيرها، وأنّه لا بدّ لصاحبه من أن ينشأ نشأة علمية خالصة يتربى فيها على الشروط الفنية التي يقتضيها كلّ علم..."(40)

فكاد من جراء ذلك، أي من نسخ الروايات التاريخية المعادية من دون دراية علميّة، أن تضيع هويتنا القومية، إلى أن انبثقت أنوار النهضة السورية القومية الاجتماعية (41). التي وضع على عاتقها سعاده مهمة نقض حكم هذا التاريخ المسيء، وتغيير وجه التاريخ في الوجهة الصحيحة، باتجاه الغاية العظمى ـ بداية التاريخ المستقل للأمة السورية، الذي سيعكس حكم التاريخ عليها، بأنّها أمّة لا تاريخ لها، بإعادة بناء تاريخ الأمة القومي الحقيقي الذي ستفاخر به بين الأمم الحرّة. فنحن "نسير مثبتين سيرنا في التاريخ الذي لا ينعدم، ونحن إذا أدركنا التاريخ لنبني التاريخ نبرهن على أنّنا أصبحنا أمّة فاعلة في التاريخ، لذلك يمكن أن نقول إنّنا أمّة منتصرة في التاريخ. قد انتصرنا انتصارات كثيرة غير منظورة، وانتصارات كثيرة منظورة، وسيكون لانتصارنا الأخير مشهد ينظر إليه العالم أجمع".

شدّد سعاده في مقدمة "نشوء الأمم" على ضرورة فهم الواقع الاجتماعي، والعلاقات الناتجة عنه، لأنّه في غياب هذا الفهم تتفشى فوضى العقائد وبلبلة الأفكار ويعمّ التصادم المدمّر بين أبناء المجتمع الواحد، وتتضعضع حقائق الحياة الاجتماعية ومجاريها، وفي مقدمتها التاريخ الذي هو مجرى حياة الأمة، وخطورته في روحية الأمة أي في يقظة الوجدان القومي.

من هنا لا بدّ لأفراد كلّ جماعة ترتقي، من مرتبة الشعور بشخصية الفرد، إلى مرتبة الوجدان القومي، الشعور بشخصية الجماعة، من فهم الواقع الاجتماعي وظروفه وطبيعة العلاقات الناتجة عنه. وهي هذه العلاقات التي تعيّن مقدار حيوية الجماعة ومؤهلاتها للبقاء والارتقاء، فبقاؤها غامضة يوجد صعوبات كثيرة تؤدي إلى إساءة الفهم وتقوية عوامل التصادم في المجتمع، فيعرقل بعضه بعضا، ويضيع جزءا غير يسير من فاعلية وحدته الحيوية، ويضعف فيه التنبه لمصالحه وما يحيط بها من أخطار من الخارج.

وإنّ درسا من هذا النوع يوضح الواقع الاجتماعي الإنساني في أطواره وظروفه وطبيعته ضروري لكلّ مجتمع يريد أن يحيا. ففي الدرس تفهم صحيح لحقائق الحياة الاجتماعية ومجاريها. ولا تخلو أمّة من الدروس الاجتماعية العلمية إلا وتقع في فوضى العقائد وبلبلة الأفكار (42). بناء عليه، سنعالج في الفقرة الآتية بعض ثوابت الفكر القومي الاجتماعي في معاني التاريخ وفلسفته:

- **في معنى التاريخ**

"التاريخ هو سجل مجرى حياة الأمة، وخطورته هي في القومية في روحية الأمة ووجدانها، لا في الأمة بعينها، فإنّ ذكريات ما قامت به الأمة، وما عانته تقوي الوجدان القومي. ووحدة الأمة هي التي تعيّن التاريخ القومي". (43).

مع الملاحظة أنّ التاريخ الذي هو سجل مجرى حياة الأمة، هو في مراحله يشكّل وحدة دائمة متداخلة ومتفاعلة ومتزامنة ومستمرة ومكمّلة بعضها للبعض، وليست حداثة المرحلة التاريخية الحاضرة بثقافتها إلا تطوّرا لمعطيات حداثة المرحلة التي سبقتها، والأساس في المرحلة التي ستليها مستقبلا.

- **بداية التاريخ**

"منذ تلك الساعة نقضنا بالفعل حكم التاريخ وابتدأنا تاريخنا الصحيح، تاريخ الحرية والواجب والنظام والقوة، تاريخ الحزب السوري القومي الاجتماعي، تاريخ الأمة السورية الحقيقي."

في الشرح يوضح سعاده: "منذ تلك الساعة نقضنا بالفعل حكم التاريخ يعني أنّنا بارتباطنا في وحدة العقيدة قد عكسنا قول التاريخ فينا، أنّنا جماعة لا تربطها رابطة، لا تكوّن شخصية، لا تكون مجتمعا موحد الحياة، بل جماعة أو جماعات من البشر متنافرة متباينة متعايشة، ليس لها إرادة، لا تعمل ما تريد بل ما يفرض عليها من المجتمعات الخارجية الفاهمة التي تستخدم مجموعنا وسيلة لبلوغ أغراضها وغاياتها هي." (44).

- **تغيير وجه التاريخ**

"أعود فأقول إنّ هذه القوة النظامية ستغير وجه التاريخ في الشرق الأدنى. وقد شاهد أجدادنا الفاتحين ومشوا على بقاياهم، أما نحن فسنضع حدّا للفتوحات (45).

- **مذهب التاريخ المستقل هو بدء التاريخ**

التاريخ المستقل هو أساس الاستقلال لكلّ الأمم.

الواجب يدعونا إلى الاستقلال بتاريخنا، إذا أردنا أن نكون كياناً مستقلاً ومحترماً بين الأمم، وجب علينا نحن دون سوانا أن نقوم بتنفيذ هذه الإرادة وتحقيق هذا الكيان.

ولا تتوهموا أنّ أمة ما تستند إلى تاريخ غير تاريخها وتنجح في اكتساب حقوق مستمدة من ذلك التاريخ. فلا يحق لأمة أن تطالب إلا بنتيجة عملها هي نفسها

لا تستطيع أمّة أن تفاخر إلا بتاريخها.

هنيئاً للأمة التي لا تاريخ لها»، ولكن ما أبعد هذا القول عن الحقيقة.

فليس لأمة لا تاريخ لها منزلة محترمة وحقوق معترف بها عند الأمم الأخرى.

هنيئا للأمة التي لها تاريخ، صنعته بنفسها وإرادتها، به تفاخر، وبه تحترم حقوقها بين الأمم الحرّة،

بهذا المعنى نفهم قول سعاده: إذا لم تكونوا أنتم أحرارا من أمة حرة فحريات الأمم عار عليكم.

نحن جماعة تصلح للقيام بأعباء تاريخها.

نحن جديرون بالقيام بمسؤولياتنا بالاعتماد على أنفسنا، لأنّنا على يقين تام، إنّ مشاطرة المسؤوليات تؤدي حتما إلى مشاطرة الحقوق، ومشاطرة الحقوق، تنفي الاستقلال، وتنفي الحريّة.

- **وعي الجماعة للعملية التاريخية**

إنّ وعي الجماعة للعملية التاريخية أهّلها الدخول الواعي في التاريخ بغاية إعادة صنعه وهذا ما تحقّق مع سعاده عند تأسيسه الحزب السوري القومي الاجتماعي. وغدت الثقافة القومية الاجتماعية الجديدة قوّة توجّه العملية التاريخية باتجاه أغراض محددة.

لقد انكبّ سعاده على توضيح أبعاد العملية التاريخية (حتمية التفاعل المتطوّر والمستمر بين الإنسان والأرض والعمل) كي لا يبقى، أيّ جزء، في العملية التاريخية غير واع لها، إذ أنّه بالقدر ما يتحقّق لدينا الوعي بوجودنا في العملية التاريخية، بمقدار ما نصبح جزءا فاعلا بإرادتنا ووعينا فيها.

عودة إلى الرئيسية

من خلال وصف سعاده للعملية التاريخية وتحليلها نجد وحدة بين العوامل الإنسانية والشروط المادية، لأن كلّ ما يتجلى تاريخيا، يستدعي هذين العاملين... فالجماعة تدخل العملية التاريخية وهي، أحيانا، غير واعية لها وللدور الذي تلعبه في سياق استمرارها.

بعد نشؤ الحزب السوري القومي الاجتماعي أضحت هذه الحقيقة حقيقة بالفعل، بعد أن كانت كامنة نائمة، لقد أصبحت حقيقة فاعلة متحركة، حقيقة تظهر وجودها، حقيقة تعبّر عن وجودها بإرادتها، اي صار الإنسان واعيا لحقيقته الموضوعية، تلك الحقيقة التي غرّبتها عنه عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية.

فالإنسان ولو أنّه كان بالقوة داخل العملية التاريخية، إلا أنّه الآن أصبح يعمل داخلها بوعي لأغراض قومية واجتماعية معينة. فوجوده في التاريخ لم يعد وجودا عشوائيا، بل صار حضورا واعيا وهادفا، بفعل النهضة القومية الاجتماعية، وهكذا تأنست العملية التاريخية.

"هناك حقيقة سورية بذاتها، بوجودها، بوضعها، بجوهرها في طبيعتها، وقد كانت هذه الحقيقة قبل نشوء الحزب السوري القومي الاجتماعي، قبل النهضة القومية الاجتماعية، حقيقة كامنة، نائمة، حقيقة ـ هي مجرّد حقيقة بالقوة الكامنة.

من جهة أخرى يرى سعاده أنّ العملية التاريخية (التي تجلّت في قيام الدولة القومية والإنتاج القومي) لن تتوقف عن التطوّر، غير أنّ هذا التطوّر وما يرافقه من احتمالات فأمر سيقرره المستقبل، ومن يدري هل يصبح العالم أمة واحدة؟

- **الحقائق التاريخية دائمة التحوّل والتطوّر**

لم يكتف سعاده بالنظرة العلمية وحدها، بل تبنى النتائج التي توصلت إليها **النظرية التطورية** (خلاصة الفصل الأول من نشؤ الأمم).

إنّ تأكيد سعاده على أهمية المعطيات العلمية يتلازم، بالتالي مع تصوره المعرفي للحقيقة التي يفترض لقيامها شرطين أساسيين الوجود والمعرفة.

طبعا هذا التصور المعرفي للحقيقة لا يلغي وجود أشياء لم تدرك بعد، غير أنّ وجودها المجهول لا يكتسب صفّة الحقيقة والقيمة ما لم تتوفر المعرفة لها.

حول هذا الموضوع نتوقف عند رسالة سعاده إلى شارل مالك، وعنوانها: "كتاب نقد وتوجيه".

"...كان موقف سعاده، في البحث، قوله بضرورة المعرفة للحقيقة، وعدم كفاية الوجود غير العاقل في ذاته لتكوين قيمة الحقيقة، لأنّ الحقيقة قيمة فكرية تحصل في العقل أو الضمير بواسطة المعرفة فقط. وكان موقف د مالك ود. الأميركاني أنّ الحقيقة تقوم بلا معرفة كالافتراض أنّ جبلا في القمر قد إندكّ ببركان أو زلزال أو ما شاكل، فلا حاجة لرؤية ذلك ومعرفته ليكون قد حصل. وقد وجه شارل مالك إلى الزعيم السؤال الآتي: إذا افترضنا أنّ زلزالا حصل في القمر، ودكّ جبلا، فهل يكون الجبل إندك أو لا يكون؟ أجاب الزعيم: إنّ افتراض المجهول لا يكون حقيقة. فلا أستطيع أن أقول جبلا في مكان ما اندك أو لم يندك، وإنّ زلزالا حدث، إلا بالمعرفة الصحيحة فقط. موقف سعاده هو موقف الفيلسوف المعتمد العقل والمعرفة، بينما موقف مناظريه كان موقف المعتمد الحدس والتخمين الذي يجعل افتراض المجهول قاعدة الحكم" (46).

إنّ الحقائق لدى سعاده هي تلك التي أقيم الدليل العلمي والعقلي على وجودها. وبما أنّ هذه الحقائق هي تاريخية فهي بالضرورة دائمة التحوّل والتطوّر بدون حدود، ومن هنا سؤاله العلمي ـ الفلسفي: "المجتمع الإنساني ليس الإنسانية مجتمعة، ومن يدري هل يقدّر للإنسانية أن تصير مجتمعا واحدا، في مستقبل العصور؟" (راجع "نشؤ الأمم"، الفصل السادس: نشؤ الدولة وتطوّرها)

مركزية العقل في فلسفة سعاده:

قراءة في أطروحة المفكر القومي الدكتور عادل ضاهر*

بقلم الرفيق الدكتور علي حمية*

تتناول هذه الورقة ما أسماها المفكر القومي الدكتور عادل ضاهر بـ "أوّلية العقل" في فلسفة أنطون سعاده، حيث رأى أن العقل، لسعاده، هو دليل الإنسان النهائي الى المعرفة. وترتكز هذه الورقة، بشكل رئيسي، إلى كتاب الدكتور ضاهر" أوّلية العقل" (الطبعة الأولى 2001) وكتاب "المجتمع والإنسان" (الطبعة الثانية 2006)، بالإضافة إلى كتابات فلسفية لسعاده، لا سيّما كتاب "جنون الخلود" وكتاب "الصراع الفكري" (1942) وكتاب "شروح في العقيدة" (1958).

يبدأ الدكتور ضاهر دراسته عن مفهوم العقل في فكر سعاده بالسؤال التالي: ما معنى القول بأوّلية العقل؟ ويجيب بأن هذه الأطروحة قد تأخذ بمعنيين، معنى معياري ومعنى إبستمولوجي. إن التأويل المعياري لأطروحة أولية العقل، برأيه، ليس غرضاً هنا، فلا معنى، في نظر سعاده، لمقارنة العقل بالجوانب الأخرى للنفس، بالجانب الانفعالي، مثلاً. ذلك إن ما نفعله، في هكذا مقارنة، لا يتجاوز الفصل، نظرياً، بين وظائف مختلفة للنفس، فضلاً عن أنه لا يمكن الفصل، عملياً، بين العقل وهذه الوظائف. إن التأويل الإبستمولوجي لأطروحة أوّلية العقل هو، أذن، التأويل الذي يعنينا، هنا. ويلخص الدكتور ضاهر ما تعنيه الأولية الإبستمولوجية للعقل في الأطروحات الأربع التالية:

1- العقل، بين كل المصادر الممكنة لاعتقاداتنا وقراراتنا ومواقفنا، هو الأكثر موثوقية في تقريبنا من معرفة الحقيقة والصواب. هذه الأطروحة لا تنفي (ضمناً) إمكان وجود مصادر أخرى لاعتقاداتنا غير العقل، فقد يكون مصدر بعض هذه الاعتقادات سلطة دينية أو زمنية، أو علم التنجيم، أو مرويات ينقلها الخلف عن السلف، أو أحاديث نتناقلها بالتواتر، أو غير ذلك من مصادر يصعب حصرها. إن ما تقوله هذه الأطروحة، إذن، ليس أن العقل هو السلطة الوحيدة الموثوقة أو أنه لا يجوز اللجوء إلى أي مصدر غير العقل في كل ما يخصّ شؤون المعرفة النظرية أو العملية. إن ما تقوله هو أن أي مصدر قد نلجأ إليه غير العقل، مهما كانت درجة موثوقيته، فإنها لا ترقى إلى مستوى موثوقية العقل (1).

2- في كل الحالات التي تتعارض فيها الاعتبارات العقلية مع الاعتبارات غير العقلية، فإن العقلية منها تكون مبطلة لغير العقلية. فإذا كانت السلطة المستمدّة من اعتبارات غير عقلية لها ما يوجبها في ظلّ ظروف معيّنة، فإن هذا الموجب لا يجب أن يُنسينا أن موثوقية هذه السلطة تأسست على أدلة عقلية، وأنه في أي لحظة قد تظهر أدلة عقلية جديدة فإن موثوقيتها ستكون، حكماً، موضع سؤال. وفي حال ظهور أدلة كهذه، فإن اللجوء إلى مثل هذه السلطة يصبح أمراً متعارضاً مع الاعتبارات العقلية (2).

3- كل ما نزعم معرفته على أساس غير عقلي هو مجرّد اعتقاد، ليس أكثرّ. إن اللجوء إلى مصدر غير عقلي – كائناً ما كان هذا المصدر – لا يمكن أن يعني، من الوجهة الإبستمولوجية، أكثر من أن الاعتقاد المستمدّ من هذا المصدر، في غياب أي سند

عقلي، هو مجرّد اعتقاد. لنفترض أن شخصاً ادّعى أنه يعرف أن حصاناً ما سيفوز في سباق الخيل وأن ادعاءه مبني على مجرّد إحساس داخلي لديه، ولنفترض أيضاً أن هذا الحصان فاز فعلاً. فهل يمكننا، في هذه الحالة، أن نقول أكثر من أنه اتفق أن اعتقاد هذا الشخص هو اعتقاد صادق وأنه، مع ذلك، لا يرقى إلى مستوى المعرفة؟ (3).

في مناظرة في بيروت، مطلع 1938، ضمّت سعاده إلى شارل مالك وأحد أساتذة الفلسفة الأميركان، حول موضوع المعرفة والحقيقة والوجود، سأل الدكتور مالك وضيفه الأميركي سعاده هذا السؤال:" إذا افترضنا أن زلزالاً حدث في القمر ودكّ جبلاً فهل يكون الجبل اندك أو لا يكون؟". فأجاب سعاده: "إن افتراض المجهول لا يكوّن حقيقة. فلا أستطيع القول إن جبلاً في مكان ما اندك أو لم يندك، وإن زلزالاً حدث، إلا بالمعرفة الصحيحة فقط" (4). إن قوله بضرورة المعرفة للحقيقة وعدم كفاية الوجود غير العاقل في ذاته لتكوين قيمة الحقيقة مردّه إلى أن الحقيقة قيمة فكرية تحصل في العقل أو الضمير بواسطة المعرفة فقط. فلا بدّ، في رأيه، لقيام الحقيقة من شرطين أساسيين: "الأول الوجود بذاته أي أن يكون الشيء موجوداً. والثاني أن تقوم المعرفة لهذا الوجود. والمعرفة هي التي تعطي الوجود قيمة لا يمكن أن تكون له بدونها. والذين يستغنون عن المعرفة الإنسانية لتقرير الحقيقة ولقيامها يفترضون معرفة أخرى لهذه الحقيقة. لكن لا يكفي تحديد الوجود لقيام الحقيقة، فالوجود يجب أن يصير معرفة ليكون حقيقة أي أنه يجب أن يُعرف من قبل الإنسان، لأن الحقيقة قيمة إنسانية نفسية والإنسان هو وحده الذي يُميّز بين الحقيقة والباطل بالمعرفة"(5). واضح، هنا، أن موقف سعاده هو موقف الفيلسوف المعتمد المعرفة المستندة إلى العقل، بينما موقف مناظريه هو موقف المعتمد الحدس والتخمين الذي يجعل افتراض المجهول قاعدة للحكم. إن الحدس والتخمين وما إلى ذلك من اعتقادات، برأيه، هي مصادر غير عقلية للمعرفة ولا يمكن الاطمئنان إلى نتائجها.

4- إفتراض وجود أساس غير عقلي للمعرفة هو نفسه افتراض لا يستقيم بدون سند عقلي. هذه الأطروحة الرابعة والأخيرة تقول إنه لو افترضنا أنه يصدق على بعض الأشخاص ما لا يصدق على أشخاص آخرين، بأن يمتلك قدرة خاصة على الإدراك- كما في مثل الحصان- تتيح له اختصار الطريق نحو المعرفة فيستغني عن اللجوء إلى أدلة عقلية استقرائية، فإن العقل يبقى دليلنا الأخير على من يمتلك هذه القدرة ومن لا يمتلكها (6).

هذه الأطروحات الأربع يجدها الدكتور ضاهر متضمّنة في العبارة التالية لسعاده: "العقل هو الشرع الأعلى والشرع الأساسي"(7). ويقول إن فكرة أولية العقل تتكرّر في أشكال مختلفة، وفي موضوعات متفرّقة ومتباعدة في كتابات سعاده. نجد هذه الفكرة بارزة، مثلاً، في بحث سعاده في الدين في كتابه" الإسلام في رسالتيه"(8)، كما نجدها بارزة في معرض بحثه في موضوع التجديد الأدبي في كتابه "الصراع الفكري في الأدب السوري"(9)، ونجدها أيضاً في بحثه في التطور الإنساني وعوامله في كتاب" نشؤ الأمم"(10). ولا ينسى الدكتور ضاهر أن يشير إلى مقالات ومحاضرات لسعاده، منها ما هو ذو طابع توجيهي ومنها ما هو ذو طابع أيديولوجي، تذكر بشكل أو بآخر الفكرة عينها (11).

بعد هذه التمهيد، ينتقل الدكتور ضاهر إلى تحديد عناوين بحثه التي يمكن اختصارها بعنوانين كبيرين هما: العقل في أدواره المختلفة، وأولية العقل في كل ما يخصّ شؤون المعرفة.

أ- العقل وجدلية العلاقة بين الإنسان والطبيعة:

يشدّد سعاده في دراسته لعلاقة الإنسان بالعالم أو الطبيعة على كونها "علاقة تفاعلية- جدلية" على ما جاء في أطروحة الدكتور ضاهر، فالإنسان لسعاده ليس مجرّد كائن متلقٍ للفعل من الخارج دون أن يقوم بالردّ عليه، بل هو كائن مخلوق بالطبيعة وخالق لها في آن واحد. من هنا، وبحكم الضرورة، يكون العقل طرفاً في هذه العلاقة الجدلية بين الإنسان والطبيعة. لولا القدرات العقلية للإنسان، يقول ضاهر مستشهداً بسعاده، لما كانت علاقة الإنسان بالأشياء حوله مختلفة عن علاقة

الكائنات الأخرى بها (12). وقد التقى سعاده في مفهومه للعلاقة الجدلية بين الإنسان والطبيعة (نشؤ الأمم، 1938) مع فيلسوف التاريخ أرنولد توينبي صاحب ما عُرف لاحقاً بنظرية" التحدي والاستجابة" التي شرحها في سلسلة كتبه التي حملت عنوان:(دراسات في التاريخ، 1934– 1966).

ويتقصّى الدكتور ضاهر أدوار العقل، كما استنتجها سعاده في تتبعه لتطور النوع الإنساني في مختلف أطواره، منذ المرحلة البدائية– الشيوعية إلى مرحلة الثورة الصناعية الحديثة المتطورة، مروراً بأشكال التطور الأخرى التي مرّ فيها الإنسان. فقد اعتبر سعاده أن المرحلة البدائية هي مرحلة سدّ الحاجات مباشرة (13)، ذلك أن الإنسان في هذه المرحلة من حياته تكاد تكون معرفته للأشياء حوله معدومة، ولذلك لا نتوقع أن يكون تعامله مع الطبيعة أو الكون الماثل أمامه أرقى بكثير من تعامل الحيوان معها. ولكن هذا لا يعني أن العقل الإنساني، في هذه المرحلة، بقي جامداً، بسبب القيود الكثيرة التي كانت تكبّله، من مثل خضوع الفرد للعشيرة بوصفه مجرّد عدد فيها، وانصرافه الكلي لسدّ حاجاته الحيوية – الملحّة. في كلا الحالتين، كان عقله منشلاً إلى حدّ بعيد، وكان نموه شديد البطء. وانحصرت جهوده في العمل على تأمين سدّ هذه الحاجات التي في سدّها تأمين لبقاء الإنسان (14).

ب– الثقافة العقلية وتوافر بيئة غنية:

لقد ربط سعاده الثقافة بالبيئة، فالبيئة الغنية تؤدّي إلى إنتاج ثقافة عقلية متطورة، والعكس صحيح. ففي نظره، يجب أن تكون البيئة التي يجد العقل الإنساني فيها ذاته من النوع المناسب له. فلا يمكننا، برأيه، أن نتوقع نشؤ حياة عقلية راقية في بيئة صحراوية، مثلاً، لأنه في هكذا بيئة لا يمكن نشؤ ثقافة زراعية بالمعنى الأصيل، فعلاقة الإنسان بالطبيعة، إذاً، مشروطة بتوافر بيئة معيّنة (كواد أو سهل خصب، مثلاً). عندها، يبدأ الإنسان في الخروج تدريجياً من حالته البدائية السابقة إلى مرحلة الثقافة الزراعية– الصناعية. وبوصوله إلى هذه المرحلة الأخيرة، يكون قد خرج من وضع القصور والتلاشي شبه المطلق في العشيرة، الأمر الذي يشكل البداية لظهوره على مسرح التاريخ كفرد له حقوقه وله وجوده الخاص (15). هذا ما يستنتجه الدكتور ضاهر من قراءته لديالكتيكية علاقة الإنسان بالطبيعة، أو البيئة، في فكر سعاده.

ج– الاختلاف بين الجماعات في الاستفادة من المحرّضات المادية:

الأرض، لسعاده، بيئات متنوعة وبالتالي العالم جماعات متفاوتة، وهكذا تختلف استجابة الإنسان لمحرّضات البيئة النازل فيها من جماعة لأخرى بحكم اختلاف الاستعداد لدى الجماعات المختلفة: فإما تستفيد الجماعة من الأرض الخصبة فتنشئ العمران، وإما تهملها، لتخلف في مزاياها العقلية– النفسية، فتعيش في بداوة إلى أن تحلّ محلها جماعة أخرى تعرف كيف تستفيد من الأرض كما فعلت الأقوام الجديدة التي جاءت أميركا متسلحة بخبرتها بطبيعة الأرض واستعدادها للاستفادة منها (16). هذه النقلة النوعية في حياة الإنسان ما كانت ممكنة لولا ظهور الفرد الذي هو، لسعاده، عامل فاصل في عملية التطور التاريخي، لأن ظهوره كان تمهيداً لظهور العقل كطرف أساسي في علاقة الإنسان الجدلية بالطبيعة (17).

د– خضوع القضايا والأحكام للعقل:

لا يترك الدكتور ضاهر مجالاً للشك في اتجاه سعاده نحو نظرة تعطي للعقل الأولية في كل ما يخصّ شؤون المعرفة. فخضوع القضايا والأحكام، على اختلاف موضوعاتها، لمعايير عقلية هو شرط ضروري للتسليم بها، ولا يفلت– حتى الدين في نظر سعاده – من المعايير العقلية. هذه النقطة واضحة كل الوضوح في كتاب "الإسلام في رسالتيه" حيث يخضع سعاده الدين وأحكامه للتحليل العقلي. ولكن هذا الكلام ليس المقصود منه أن سعاده ينفي وجود الله كعقل مطلق. فهو لم يتعرّض للشؤون اللاهوتية أو الميتافيزيقية كما أنه ترك لأعضاء

حزبه حرية الاعتقاد الديني. ولذلك، فإن نفيه لوجود عقل مطلق لا يتخطى كونه نفياً للنظرة المثالية التي تعتبر الذات المفكرة جوهراً مستقلاً عن الشروط المادية والتاريخية.

إن نظرة سعاده هذه إلى العقل لا تعني اتجاهه نحو موقف عقلي كالذي انتشر في أوروبا في القرن السابع عشر عن طريق فلاسفة كديكارت وسبينوزا، أي موقف ينظر إلى العقل الاستنباطي على أنه المصدر الأخير والمعيار الأخير للمعرفة. فسعاده الذي يشدّد على أن الذات والوجود هما قطبا الحقيقة ينكر على الذات العارفة وحدها أن تصل إلى حقائق واقعية. ولذلك لا يجوز تأويل دفاعه عن أولية العقل على أنه دفاع عن نظرة ابستمولوجية من النوع العقلي الذي يسبغ على معرفة الواقع طابعاً قبلياً، فتظهر وكأنها أمر منوط فقط بالذات العارفة (18). لإيضاح هذه الفكرة، يأخذ الدكتور ضاهر مثلاً نظرة سعاده للقيم. فليست القيم، لسعاده، جزءاً من واقع موضوعي مفارق، أي متخط للوقائع التجريبية، ومستقل عن الإرادة الإنسانية. إنها شأن أنساني محض، ليس فقط بمعنى أن الإنسان هو مصدرها، بل أيضاً بمعنى خضوع عملية التقييم لمصالح وحاجات الإنسان وفهمه لهذه المصالح والحاجات بوجهيها المادي والمعنوي(..) فالقيم تنشأ في المجتمع استجابة لحاجات اجتماعية عينية (19).

وكما يرفض سعاده نظرية الذات العارفة كأساس للمعرفة، كذلك يرفض الحدس كأساس للمعرفة، ويصرّ على أن الحقيقة تقوم على الذات والموضوع. وهذا يعني أنه يرفض النظرة العقلية وكذلك النظرة المثالية التي لا تعطي أهمية سوى للذات.

إن تشديد سعاده على دور العقل لا يمكن أن يؤخذ على أنه يعطي العقل طبيعة مستقلة، متعالية، تعمل باستقلال عن المادة والطبيعة. فالعقل، لسعاده، ليس جوهراً مستقلاً عن المادة. إنه "نتيجة التطورات الفيزيائية للدماغ". ثمّ أن العقل، لسعاده، خاضع في عملياته لشروط حياة الإنسان البيئية – المادية. فلا يمكن للعقل، مثلاً، أن يصل ألى ابتكار العجلة في الصحراء– كما سبقت الإشارة– حيث ظروف الحياة لا تسمح بتوافر المواد اللازمة لابتكارها (20).

هـ– " العقل الشرع الأعلى والأساسي":

يشرح الدكتور ضاهر هذه القاعدة الصلبة في فكر سعاده بقوله: يشكل العقل لسعاده الشرع الأعلى والشرع الأساسي. هذه النظرة تعتبر سلطة العقل نهائية في الأمور التي يمكن وضعها ضمن إطار المعرفة الموضوعية. وهذا يعني، على وجه التحديد، أنه إذا تضاربت سلطة العقل مع سلطة أخرى، كسلطة الدين أو التقاليد وما شاكل ذلك– بخصوص ما يجب أن نفعله على صعيد تنظيم حياتنا اجتماعياً واقتصادياً وروحياً– فما يقوله العقل، في هذه الحالات، يجب أن يكون حاسماً ونهائياً 21). ومن الواضح هنا أن في توكيد السلطة النهائية للعقل، في هذه الحالات، نفياً للنظرة التيوقراطية التي تجعل سلطة الدين نهائية فيما يختص بالأمور المعنية.

إن وضع سلطة العقل، هنا، فوق سلطة الدين، لا يتنافى، في اعتقاد سعاده، مع الأسس الميتافيزيقية أو اللاهوتية للدين. فإن أي فهم صحيح لهذه الأسس، لا بدّ أن يتوصل، برأي الدكتور ضاهر، إلى نظرة سعاده التي تقول: من المسلمات اللاهوتية للدين اعتبار الإنسان مخلوقاً من قبل الله، واعتبار العقل الإنساني هبة خصّ الله الإنسان بها لتمييزه عن العجماوات، واعتبار الله مطلق الكمال، الأمر الذي يعني فيما يعني أن الله لا يخلق شيئاً عبثاً، وأنه لا يمكن أن يناقض نفسه (22). بهذا المعنى، قال سعاده: "لم يوجد العقل الإنساني عبثاً. لم يوجد ليتقيّد وينشلّ. بل وجد ليعرف، ليدرك، ليتبصر، ليميّز، ليعيّن الأهداف وليفعل في الوجود. وفي نظرتنا أنه لا شيء مطلقاً يمكن أن يعطل هذه القوة الأساسية وهذه الموهبة الأساسية للإنسان. العقل في الإنسان هو نفسه الشرع الأعلى والشرع الأساسي. هو موهبة الإنسان العليا. هو التمييز في الحياة فإذا وضعت قواعد تبطل التمييز والإدراك، وتبطل العقل، فقد تلاشت ميزة الإنسان الأساسية وبطل أن يكون الإنسان إنساناً وانحطّ إلى درجة العجماوات المسيّرة بلا عقل ولا وعي.

سنة الله أو سنة الطبيعة هي التي لا يفعل فيها عقل مميّز مدرك، وهذه للجمادات والعجماوات. أما الإنسان فالله أعطاه القوة المميزة المدركة لينظر في شؤونه ويكيّفها على ما يفيد مصالحه ومقاصده الكبرى في الحياة. فليس معقولاً إذن أن يعطل الله نفسه هذه القوة بشرع أبدي أزلي جامد. لذلك كان العقل الإنساني"(23).

هل يبقى، في ضوء كل ما سبق، أي سبب لعدم جعل العقل دليلنا النهائي إلى المعرفة؟ يختم الدكتور ضاهر دراسته عن أولية العقل في فكر سعاده!

الهوامش

(*) ورقة قدّمت إلى مؤتمر الجمعية الفلسفية الأردنية الذي عُقد في عمان يومي الثلاثاء والأربعاء، في 27 و28 تشرين الأول 2009، تحت عنوان " العقلانية في الفكر العربي". وتجدر الإشارة، هنا، إلى أنني أعجبت، أيّما إعجاب، بالعرض الذي قدّمه الدكتور ضاهر لأطروحته عن" أوّلية العقل" في فلسفة سعاده، في كتابيه المذكورين في هذه الورقة، الأمر الذي جعلني لا أتحرّج في الاستشهاد بفقرات طويلة منهما، كما وردت في النصّ الأصلي. فاقتضى التنويه.

1- ضاهر، عادل: أولية العقل، دار أمواج، الطبعة الأولى، بيروت 2001، ص156.
2- ضاهر، المرجع نفسه، ص 156.
3- ضاهر، المرجع نفسه، ص 158.
4- سعاده، أنطون: الأعمال الكاملة، المجلد 3، الطبعة الأولى، بيروت 2001، ص 261.
5- سعاده، الأعمال الكاملة، المجلد 8، المرجع المذكور، ص 49.
6- ضاهر، المرجع نفسه، ص 159.
7- سعاده، الأعمال الكاملة، المجلد 8، الطبعة الأولى، بيروت 2001، ص94
8- هو الجزء الثاني من سلسلة مقالات كتبها سعاده بين عامي 1940و1942، في مجلة "الزوبعة" في الأرجنتين ونشرت لاحقاً في مجموعتين هما: "جنون الخلود" و"الإسلام في رسالتيه: المسيحية والمحمدية"، كما نشرت أيضاً في مجموعة واحدة تحت عنوان: " جنون الخلود".
9- " الصراع الفكري في الأدب السوري " هو العنوان الكامل للكتاب الذي نشره سعاده على حلقات، في مجلة" الزوبعة" في الأرجنتين، عام 1942، ثم نشره في كتاب، على حدة، في نفس السنة.
10-10- " نشوء الأمم" هو الكتاب الذي نشره سعاده عام 1938 ويدرس فيه كيفية نشؤ الأمم والجماعات. وقد عدّه كثير من النقاد، في حينه، الكتاب الثاني في علم الاجتماع، بعد مقدمة إبن خلدون.
11-11- ضاهر، عادل: المجتمع والإنسان، دراسة في فلسفة أنطون سعاده الاجتماعية، الطبعة الثانية، دار الفرات، بيروت 2006، ص 200.
12-12- ضاهر، المرجع نفسه، ص 293.
13-13- سعاده، أنطون: نشؤ الأمم، طبعة منقحة بقلم المؤلف، مؤسسة سعاده للثقافة، ط14، بيروت 2014، ص 46.
14-14- ضاهر، المرجع نفسه، ص 293.
15-15- ضاهر، المرجع نفسه، ص 294.
16-16- سعاده، نشؤ الأمم، المرجع نفسه، ص51.
17-17- سعاده، نشؤ الأمم، ص 11، وضاهر، المجتمع والإنسان، ص 296.
18-18- ضاهر، المرجع نفسه، ص 201.
19-19- ضاهر، المرجع نفسه، ص 204.
20-20- سعاده، نشؤ الأمم، المرجع نفسه، 48.
21-21- ضاهر، المرجع نفسه، ص 424.
22-22- ضاهر، المرجع نفسه، ص 424.
23-23- سعاده، الأعمال الكاملة، المجلد 8، المرجع المذكور، ص 94-95.

***أستاذ محاضر في الجامعة اللبنانية**

مذكرات الأمين عبد الوهاب بعّاج:
المرويات التاريخية تأتي من القاعدة!

بقلم الأمين أحمد أصفهاني

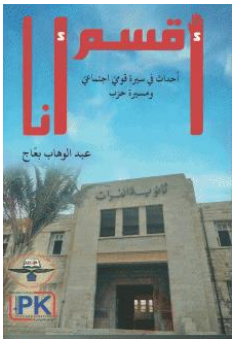

إذا استثنينا الفصل المُعنون "ستون عاماً على قراءة في رسائل صديقة"، فإن كتاب "أقسم أنا – أحداث في سيرة قومي اجتماعي ومسيرة حزب" للأمين المحامي عبد الوهاب بعّاج يُعتبر واحداً من أهم كتب المذكرات التي أصدرها قوميون اجتماعيون في السنوات القليلة الماضية. فعلى حد علمي واطلاعي، لم يسبق لأي رفيق أن سجّل مروياته عمّا حل بالفروع النائية التابعة للحزب السوري القومي الاجتماعي بعد الحملة الوحشية التي شنتها أجهزة المخابرات السورية بذريعة اغتيال عدنان المالكي في دمشق سنة 1955. وغالباً ما تقتصر مذكرات الرفقاء الشاميين على ما حلّ بمركز الحزب وبعض المسؤولين المركزيين، بينما ينقلنا كتاب الأمين بعّاج إلى دير الزور ذات التركيبة الاجتماعية الخاصة.

الفصل الذي استثنيناه (الصفحات من 102 إلى 121) يتناول شأناً خاصاً يحيط به الغموض، خصوصاً بالنسبة إلى القارئ غير المطلع على حياة المؤلف ونشاطاته في دير الزور وغيرها من مناطق الجمهورية السورية. ولعل الرسائل التي يقرأها الأمين بعّاج، أو التي يستعيد ذكريات مرتبطة بصاحبتها، تمسّ وتراً حساساً في نفس مَنْ كُتبت إليه. غير أن القارئ "الغريب" (مثلي أنا) يشعر بأنها أدخلت إلى الكتاب بفعل القوة العاطفية... ولذلك كنت أتمنى لو أنها عثرت على مكان مناسب خارج هذا الكتاب الهام.

تولى الأمين بعّاج مسؤوليات محلية عدة في دير الزور، تُوجت بمسؤولية المنفذ العام. وتكمن أهمية مروياته في أنه يسرد الأحداث من موقع العارف بكل العلاقات المتشابكة في مجتمع تقليدي تحكمه عادات وتقاليد عشائرية. وقد تابعت باهتمام كبير حديثه عن نشوء الحزب السوري القومي الاجتماعي ونموه في تلك الأجواء، ثم اندلاع المنافسات والصراعات مع القوى الحزبية الأخرى. وينجح الأمين بعّاج في نقلنا إلى قلب الأحداث التي سبقت مقتل المالكي وتلك التي تلته. إن الحملة الشرسة على القوميين الاجتماعيين معروفة التفاصيل، لكننا في هذا الكتاب نقف على طريقة مواجهة الفرع الحزبي للتحالف غير

عودة إلى الرئيسية

المقدس بين الأحزاب والمخابرات. ونلاحظ أيضاً كيف أن الصلات العشائرية لعبت أدواراً في المداهمات وعمليات الاعتقال المتواصلة.

تحت رقابة متواصلة، عرضة للمداهمات في أي وقت، ويُطلب منهم مراجعة أجهزة الأمن وإثبات الوجود دائماً. ومع ذلك، يوضح لنا المؤلف أن إعادة تفعيل العمل الحزبي لم تتأخر كثيراً. غير أن طبيعة التنظيم تغيّرت حتى لا يقع الرفقاء بأيدي أجهزة المخابرات. وكثيراً ما لوحق الرفقاء بسبب نشاطهم الحزبي، إلا أن رجال الشرطة المحلية كانوا يتصرفون وِفق الأعراف العشائرية تسامحاً وتشدداً.

ويرصد الكتاب التبدل التدريجي في علاقة الحكومة الشامية مع النشاط القومي الاجتماعي غير المرخص له في الجهورية السورية: من المنع المتشدد، إلى سياسة غض النظر، إلى التشجيع لكن من دون ترخيص، إلى القبول بالنشاط العلني، وصولاً إلى عضوية "الجبهة الوطنية" الحاكمة (نظرياً) في دمشق... وأخيراً المحاولة البائسة التي أقدم عليها الأمين الراحل عصام المحايري الرئيس الأسبق للحزب بتشكيل تنظيم "الأمانة العامة" في الجمهورية السورية. وتكتمل أهمية الكتاب بالقسم الأخير، وهو نصف عدد صفحات الكتاب تقريباً. فقد نشر الأمين بعّاج مراسلاته ومداخلاته وصادراته التي تتعلق بأوضاع الحزب في السنوات القليلة الماضية. ثم أورد عشرات الوثائق الحزبية والإعلامية

القسم الثاني من مرويات الأمين بعّاج يشرح لنا صعوبات الحياة اليومية بالنسبة إلى القوميين الاجتماعيين بعد صدور الأحكام في قضية المالكي. فالأعضاء الذين لم يتركوا دير الزور وجدوا أنفسهم

من تاريخ منفذية دير الزور. وهذا إنجاز يُسجّل له نظراً إلى حجم المصادرات التي نفذتها أجهزة الأمن، فضاع الكثير الكثير من الأرشيف القومي الاجتماعي.

شكلت سنة 2011 منعطفاً خطيراً في مسار الأزمة السياسية السورية. وجرى استهداف القوميين الاجتماعيين في عدد من المناطق، بينها دير الزور وإدلب وحلب وحماه وحمص. ووجد الحزب نفسه منخرطاً في آتون المعارك، ليدفع ثمناً غالياً. إن كتابات الأمين بعّاج هي بمثابة شاهد العيان الذي رافق تطورات الوضع من مجرد احتجاجات مطلبية معيّنة وصولاً إلى حرب أهلية وكونية مدمّرة! وميزة هذا الكتاب أننا نقرأ محتوياته من القاعدة إلى الأعلى، وليس من الأعلى إلى تحت... وهذا جهد نادر قلما وجدنا مثيلاً له في مذكرات قومية اجتماعية.

---

*"أقسم أنا – أحداث في سيرة قومي اجتماعي ومسيرة حزب"، عبد الوهاب بعّاج. دار عقل للنشر والدراسات والترجمة". دمشق 2023.

«غاية الحزب بعيدة المدى عالية الأهمية لأنها لا تقتصر على معالجة شكل من الأشكال السياسية، بل تتناول القومية من أساسها واتجاه الحياة القومية.»

يعني هذا أننا لسنا مجرد حزب سياسي. والحزب السياسي هو الذي يجمع فئة من الناس على مصالح تتحد بنطاق تلك الفئة لتناوئ فئة أخرى ضمن البلاد وتتغلب عليها وتصل إلى الحكم من أجل تحقيق تلك المصالح المختصة بتلك الفئة.

نحن حزب يتناول ما هو أبعد كثيراً من مصالح فئة جزئية محدودة في الوطن والأمة. نحن حزب يتناول حياة الأمة كلها بمجموعها، يتناول الحياة القومية من أساسها والمقاصد العظمى للحياة القومية كلها وليس لجزء واحد منها.

قراءة في كتاب مرجعي:

الحوريون "المجهولون" وسطاء... ومبدعون أيضاً

بقلم: توما توما

اعتاد علماء الآثار الغربيون، إجمالاً، على التعاطي مع شعوب الشرق القديم وتاريخها من منظار عرقي محدد، وُضعت خطوطه العريضة في ظل بروز الغرب الأوروبي كقوة استعمارية وحيدة مهيمنة على مقدرات العالم خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وهكذا بتنا نقرأ عن "شعوب" ذات عرقيات مختلفة كالبابليين والآشوريين والعموريين والكنعانيين والآراميين والحوريين والميتانيين وكأننا نقرأ عن الإسكيمو من جهة وعن القبائل الأفريقية من جهة أخرى.

وما لم ينتبه إليه بعض العلماء، أو أنهم تجاهلوه عمداً، هو أن هذه التسميات ـــ وإن كانت تاريخية بالفعل ـــ إلا أنها لم تشكل في الواقع الاجتماعي شعوباً منفصلة، بقدر ما كانت صفات لغوية أو مناطقية او حتى شكلية. وأثبتت الأبحاث التاريخية الموضوعية، مدعومة بالمكتشفات الآثارية الحديثة، أن هذه الشعوب هي بالفعل شعب واحد عاش على أرض واحدة ولكن في ظروف مختلفة وأزمان متعاقبة.

وميزة كتاب "الحوريون" للبروفسور الألماني جيرنو ويلهلم Gernot Wilhelm تكمن في عاملين: أنه الأول المخصص لتلك الجماعة البشرية شبه المجهولة في تاريخ الهلال السوري الخصيب، وأنه لم يقع في مطب البحث العرقي الذي يُرجع الحوريين إلى أصول سامية أو هندو – أوروبية كما فعل معظم العلماء الغربيين الآخرين. فقد أقرّ المؤلف منذ الصفحات الأولى "أن الحوريين هم جماعة لغوية كانت تتكلم لهجة مختلفة نوعاً ما عن اللغات السائدة في شمال سورية وبلاد الرافدين ما بين الألف الثالث ومنتصف الألف الأول قبل الميلاد.

الكتاب في الأصل موضوع باللغة الألمانية، وترجمته إلى الإنكليزية الباحثة جنيفر بارنز Jennifer Barnes. أما الفصول الأساسية فهي: المقدمة، التاريخ، المجتمع والتجارة، الآلهة والأساطير والمعتقدات والسحر، الأدب، وأخيراً فصل عن الفن والهندسة المعمارية. إضافة إلى المراجع والفهارس واللوحات المصورة.

حتى الآن، لم يستطع الباحثون استكمال المعلومات اللازمة لكتابة تاريخ الحوريين الذين استوطنوا القوس الشمالي من الهلال السوري الخصيب. ذلك أن مواقع استيطانهم في مناطق أعالي الفرات ما زالت تخضع حتى الآن لعمليات التنقيب والكشف. إلا أن المعطيات المتوافرة حالياً تشير إلى أن موطنهم الأصلي كان في جبال كردستان، وأن أصل الكلمة يعني "المحارب"، مما يدل على أنهم لم يكونوا "شعباً مستقلاً"، بقدر ما أنهم حصلوا على صفة، نظراً إلى قوتهم وبطولاتهم. ومن أبرز المواقع الآثارية التي قدمت ما يضيء على تاريخهم: ماري وأوغاريت وإيمار ونوزي والالاخ، وبعض المدن الحثية في هضبة الأناضول.

ويصف المؤلف دور الحوريين في تاريخ الشرق الأدنى القديم على الشكل التالي: "في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، نزل الحوريون من التلال الشمالية الشرقية لبلاد ما بين النهرين، وتأثروا كثيراً بالحضارة السومرية – الأشورية، ثم لعبوا دوراً حيوياً خلال منتصف الألف الثاني قبل الميلاد في نقل هذه الحضارة إلى سورية (يقصد سورية الداخلية والساحلية وآسيا الوسطى). ويعود مرة أخرى ليؤكد على أن اللغة لا يمكن أن تشكل هوية، فيقول: "إن جماعة ما يتم تحديدها أساساً من خلال استعمال لغة معينة لا تشكل بالضرورة انعكاساً لوحدة اجتماعية". إن تاريخ الحوريين متناثر من دون ترتيب بين الألف الثالث ومنتصف الألف الثاني قبل الميلاد. ولا نعثر على وجود موثّق فعلاً إلا في حدود

القرن السادس عشر قبل الميلاد عندما نشأت في مناطق أعالي الفرات دولة الميتانيين، (وهي في الأساس دولة الحوريين واتخذت اسمها ذاك ربما من إحدى السلالات الحاكمة). وتلك الدولة كانت طرفاً مهماً في الثالوث المسيطر على الشرق القديم آنذاك، طرفاه الآخران الدولة الحثية والدولة الفرعونية المصرية، وذلك قبل بروز الإمبراطورية الآشورية التي أنهت الطرفين الأولين وأجبرت الثالث على الانكفاء داخل دلتا النيل في مصر.

وبحكم الموقع الاستراتيجي فيما بين النهرين وآسيا الصغرى وجنوب سورية، وطبعاً البحر المتوسط وانفتاحه على العالم الإغريقي، لعب الحوريون دور الوسيط التجاري النشط، وبالتالي الوسيط الثقافي. ولذلك يلاحظ الباحثون أن الهوية الحضارية للمدن الحورية (الميتانية فيما بعد) هي رافدية ـــ سورية أولاً، مع ملامح من آسيا الصغرى ومصر الفرعونية بحكم التبادل التجاري والاحتكاكات الحربية الواسعة النطاق في القرن الخامس عشر قبل الميلاد. وكان الطريق الحضاري من الشرق السوري إلى بحر إيجة وبلاد الإغريق يمر من اتجاهين: براً عبر كيليكيا والإسكندرون وصولاً إلى الأناضول ومن هناك إلى بحر إيجة. وبحراً من أوغاريت وجزيرة أرواد (وربما جبيل) إلى بحر إيجة وقبرص وبلاد الإغريق وشواطئ المتوسط الجنوبية.

ومع أن المؤلف لم يركز على دور الحوريين كمبدعين ووسطاء في الوقت نفسه في عملية العطاء الحضاري، إلا أن بعض النصوص في الفصل المتعلق بالمعتقدات الغيبية يؤكد أن بلاد الإغريق مدينة بالكثير للحضارة السورية المزدهرة في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد. وهناك شبه كبير، مثلاً، بين أسطورة الحوريين عن تعاقب الآلهة وبين الأساطير التي تروي عن الشاعر اليوناني هسيود الذي عاش في حوالي 700 قبل الميلاد.

ويقول المؤلف "إن الطريق المحدد لانتقال هذه الأسطورة غير واضح. ويمكننا الإشارة إلى أن أصل والد هسيود يعود إلى آسيا الصغرى. ولكن الاحتمال الأبرز أن التبادل اليوناني – الفينيقي حمل هذه الأسطورة من الشرق الأدنى إلى بلاد الإغريق". والحقيقة أن المؤلف يشير في أكثر من مكان، خصوصاً في الفصل المتعلق بالمعتقدات الدينية، إلى الملامح الحورية الموجودة في الأساطير اليونانية والرومانية والتوراتية. بل هو يذكر أن إحدى الفقرات الغامضة في التوراة، والمتعلقة بطقس كهنوتي يشمل نقل النجاسة من الكاهن إلى أحد الحيوانات الأليفة، ظلت غامضة حتى منتصف هذا القرن عندما اكتشفت ألواح حورية في شمال سورية تصف ممارسة هذا الطقس على أيدي الكهنة الحوريين. وآنذاك فقط اتضحت العملية التوراتية ومعها المفردات أيضاً، وتبيّن أنها تأثر أو نقل عن المعتقدات السورية القديمة في مناطق تواجد الحوريين.

للمرة الأولى يستطيع المهتم بتاريخ سورية والشرق الأدنى القديم أن يقرأ كتاباً جامعاً عن الحوريين: تاريخهم ودولهم وأدبهم ومعتقداتهم وعلاقاتهم بالقوى المجاورة ودورهم في العملية الحضارية السورية. واستطاع المؤلف بالفعل أن يتجاوز المنزلقات العرقية التي كثيراً ما وقع فيها علماء أخرون بارزون. فهو يقدم المعلومات المتوافرة، رابطاً فيما بينها وموضحاً ما استغلق فهمه منها، ويؤكد أن مناطق الشمال السوري ما تزال حبلى بمئات من التلال الآثارية الحاملة في أحشائها مواقع تعد بالجديد والمثير من المكتشفات، تماماً كما تمخض تل مرديخ قرب حلب عن مدينة إيبلا الإمبراطورية وأرشيفها الحضاري العريق.

ويكرر البروفسور ويلهلم مرات عدة المقولة التالية التي شكلت منهج دراسته: "... ومهما يكن من أمر، فمن نافل القول التأكيد أن العلاقات الاقتصادية تتحدد إلى درجة كبيرة بطبيعة البيئة المحلية، وأجوائها، ومصادرها، وتنوع مناخها، ونظامها المائي، وطرق مواصلاتها... في حين أن تأثير اللغة المشتركة والدين والعادات التاريخية أقل أهمية".

تاريخ سورية بين الجناحين الرافدي والشامي

بقلم الدكتور بشار خليف*

وجّه لي أحد الأصدقاء السؤال التالي:

"**في دراستك للتاريخ السوري أو المشرقي منذ اثنتي عشرة ألف سنة، كان هناك رصد حقيقي لفاعلية حضارية ثقافية اجتماعية. كانت هذه الفاعلية ترتفع وتتوسع ومن ثم تعود للتراجع.**

سؤالي الى حضرتكم ما الذي خلصت إليه أبحاثكم، وكيف نفسر عوامل الصعود وعوامل التراجع للفاعلية السورية بمستوياتها المتعددة؟"

أشارككم هنا بالجواب على هذا السؤال:

عدة عوامل موضوعية وذاتية كانت تفعل فعلها في مسار الفاعلية التاريخية المشرقية، منها ما هو سلبي ومنها ما هو إيجابي أو بين بين.

التركيز هنا ينبغي أن يكون على مدى الاستجابة المشرقية لتلك العوامل بتناقضاتها.

العوامل الموضوعية نستطيع حصرها في المناخ وأمزجته والتي كان لها دوراً كبيراً في انسياحات الشعوب وتهالك مدن وسقوط ممالك، ثم تلك الأواني المستطرقة في صعود قوى جديدة إقليمية وغير إقليمية وسط تراخي الفاعلية المشرقية التي نستطيع تمييزها بين جناحين رافدي وشامي.

الملاحظ هنا، هو ثقل وتماسك الجناح الرافدي للمشرق مقابل تجزؤ وتراخي الجناح الشامي، أذكر هنا تأكيد المؤرخ البريطاني توينبي حول أن التشابك المديني بين مدن الرافدين إضافة إلى توضع أغلب المدن على امتداد دجلة والفرات حتّمَ ظهور سلطة مركزية تنظم العلاقات بين الممالك والمدن المتشابكة لهذا نجد منذ منتصف الألف الثالث ق.م استعار الحروب بين مدن الجنوب الرافدي حتى استطاع لوجال زاجيزي توحيد المدن تلك لإنهاء التشرذم المصلحي البيئي والحياتي فيما بينها حتى وصل إلى مدينة ماري، مركز التجارة الشامي على الفرات الأوسط.

ثم كان الحضور الأكدي بقيادة شروكين الأكدي لضم الجناح الشامي إلى الفضاء المشرقي الأتم.

الملاحظة هنا أيضاً، أن الجناح الشامي لم يكن متماسكاً عبر تاريخه، بعضهم عزا ذلك إلى الطبيعة الجغرافية والتضاريس في هذا الجناح، ولكن الإطار العام يقول إنه ومع نشوء ممالك المدن مع مطلع الألف الثاني ق.م على مدى المشرق بهوية أمورية كنعانية جبّتْ كال الثقافة المشرقية السابقة، لم يستطع المشرق وفق هذه الأريحية الديمغرافية أن يتوحد، وبقي متشرذماً حتى أصبح لقمة سائغة للقوة الصاعدة الحثية والميتانية والحورية وهكذا.

صعود تلك القوى الإقليمية طبيعي تاريخياً لكن ضعف المشرق ليس طبيعياً آنذاك.

فصعود فاعلية بابل حمورابي حتّمتْ تدمير ماري الذي أدى فيما بعد إلى تدمير مملكة حلب \ يمحاض، الذي بدوره أدى إلى تدمير مملكة قطنا وفراغ الجناح الشامي من قواه المتشرذمة الفاعلة.

الوعي المديني غَلبَ الوعي التوحيدي والاتحادي وهذا جعل المشرق في النصف الثاني من الألف الثاني ق.م دمية يتلاعب بها المصريون والحثيون، وانبطحت مدن الجناح الشامي تحت أقدام الغزاة على عكس مدن الجناح الرافدي التي بقيت أكثر عزة بالنفس المشرقية.

في كل هذا يتحمل الجناح الشامي مسؤوليته التاريخية تجاه ضعفه التاريخي مقابل حضوره الثقافي الأقوى.

حتى مع الفاعلية الآرامية بقيت الممالك الآرامية منقسمة وغير متوحدة، ربما ينتابها التحالف في مواجهة الآشوريين مثلاً لكنها لن ولم تتحد.

عودة إلى الرئيسية

رؤيتنا أن قدَر الجناح الشـــامي أن يبقى متشـــرذماً وهذا ما حققته له معاهدة سايكس– بيكو واحتفلتْ به.

بالمعطى التاريخي، كان الجناح الرافدي أكثر تماســـكاً ومنعة من الجناح الشـامي، ربما هنا لعب الموقع الجغرافي دوره في هذا إضـافة لمعطيات الشخصية الرافدية المستمدة من بيئتها القاسية.

لم يكن الجناح الشـامي في تاريخه محتلاً لأحد، على عكس الرافدي، كأن مهمته الثقافية الحضارية كانت أكثر حضوراً وفاعلية.

الصـعود والهبوط الحضـاري كان من صـنع المشرق نفسـه، لم يُفرض عليه، فقط المناخ بظواهره كان أقوى من الحضارة نفسها.

الشيء المهم هنا، هو تلك الرافعة الاجتماعية التي فعلت فعلها رغم الضعف السياسي ورغم ضعف الوعي الاتحادي بحيث قدّمت إبداعاً مميزاً حضارياً صبغَ المشرق بالريادة.

*** الدكتور بشار خليف طبيب مقيم في دمشق وهو كاتب له العديد من المؤلفات في التاريخ السوري.**

صوت سعاده

أيها السادة،

إننا أمة بكل ما في الكلمة من معنى، ولنا وطن واحد هو تراثنا وأملنا الوحيد لتحقيق حريتنا ومثلنا العليا. فيجب علينا أن نكون يداً واحدة في تقوية وحدتنا والمحافظة على هذا الميراث الذي خلَّفه جدودنا لنا نحن لا لغيرنا. إنّ مصـلحتنا هي وحدتنا الداخلية الخاصـة التي تكسبنا عصـبية قومية تكفل بقاء حقوقنا لنا، وتولّد فينا نهضـــة تجعلنا جديرين بالتمتع بجمال هذا الوطن النادر المثال وخيراته، ولا تظنوا أنّ جميع أمجاد الفتوحات توازي الحرية القومية المقدسة في هذه الجنات التي تجري من تحتها الأنهار. إنّ مقام مضيق ثرموبيلي في الخلود لأرفع وأمجد من كل فتوحات الإسكندر، لأن مضيق ثرموبيلي يمثل التفاني في سبيل الحرية القومية المقدسة، أما فتوحات الإسكندر فنكبات أخرت تقدم المدنية. وإنّ معركة ميســلون لأعظم وأمجد المعارك التي شـــهدتها هذه البلاد في التاريخ الحديث لأنها تمثل روح أمة حية وترمز إلى مثلها العليا. إنها أول معركة نظامية يقوم بها في التاريخ الحديث جيش سوري بقيادة قائد من أجل حرية سورية.

إنّ معركة ميسلون تمثل مبدأً جديداً في حياة سورية الجديد المتنبهة. إنه مبدأ العمل الجدي لا مبدأ الهرب من المسؤوليات ثم ادعاء نصيب في ثمرة الجهاد. إنها الدليل القاطع على أنّ سورية قد صممت على أن تكوّن تاريخها بنفسها وأن تحصد ما تزرع وتجني مما تغرس.

يقول الجبناء لكم ولي: إنّ سورية صـغيرة فهي لا تتمكن من صـيانة كيانها والدفاع عن أرضـها. أنظروا إلى ميسـلون تروا الدليل على صـحة ما نقول. إنه الجبن يتكلم فلنحترم الجبن قليلاً، وإن كان الجبن لا يستحق الاحترام، ولنرد على هذا القول الهراء وإن كان هذا القول لا يستحق الرد. أقول إنّ معركة ميسـلون أعظم دليل على أنّ سـورية تتمكن من صـيانة كيانها والدفاع عن أرضـها. إنّ في معركة ميسـلون قوة سـحرية مخزونة ولكنها قوة فاصلة في حياة الأمم، هي قوة الإرادة العجيبة، هي قوة إرادة أمة حية، وما تستطيع إرادة أمة حية تحقيقه فشيء لا يحلم به الجبناء.

إنّ معركة ميسـلون تمثل جزءاً يسـيراً جداً مما تسـتطيع الأمة السـورية عمله مجتمعة. وإنّ قوة الأمة كلها ومبلغ حنكتها وأسـاليبها لم تكن ممثلة تمثيلاً صـحيحاً في ميسـلون، فميسـلون لم تكن سـوى اختبار ضـروري لتحسـين أسـاليب عمل الأمة. إنّ ميسـلون هي بدء تاريخ الأمة السـورية الحديث لا نهايته. والذين لا يفهمون هذه الحقيقة لا يفهمون شيئاً من حياة الأمم وموتها، ولا يفهمون شيئاً من معاني التاريخ.

سعاده، الاتحاد العملي في حياة الأمم، النهضة، بيروت، العدد 64، 1937/12/30.

أنطون سعاده والمقاربة السوسيولوجية

بقلم الرفيق الدكتور منير سعيد مهنا*

من خصائص علم الإجتماع أنه في ماهيته علم " إستفهامي"، يبدأ بالملاحظة اليقظة للظواهر الإجتماعية ليبني على أساسها تساؤلاته وإشكاليته وفرضياته، ولا يكتفي بأسئلة من نوع " ماذا؟ ولماذا؟ " بل يتعداها الى السؤال عن " كيف؟" ليستقيم التفسير ويتوضح المعنى وتنجلي الدلالة. وعلم الإجتماع هو أيضاً علم " نقدي" يعتمد على التفكيك والتحليل في بناء المقولات المعرفية على ضوء ما تكشفه الوقائع السوسيولوجية بعد أن تخرج عن عموميات التفكير الشائع ودوغمائياته المسيطرة على الفهم في مجريات الواقع الإجتماعي.

ولأن هدف العلم تنظيم المعرفة حول الموضوعات التي يدرسها، فإن الإشتغال في علم الإجتماع يتطلب من العاملين في هذا الحقل المعرفي أن يكونوا بادىء ذي بدء على سعة إطلاع تؤهلهم لإلتقاط ما يختزنه الواقع من ممكنات ورهانات وما يواجهه من معضلات وتحديات، ومحاولة ترسيمها في شبكة معرفية تسمح بقراءة المشهد الإجتماعي ورسم مآلاته. وبالتالي الخروج بالفكر من ضيق الممكن الى رحابة الإمكان.

إن المهمة المعرفية للباحث السوسيولوجي لا يجب أن تقف عند حدود النظريات والمفاهيم الوافدة من تاريخ المعرفة السوسيولوجية ومنظريها، وإنما أيضاً من منظور إرتباطه بمشروعه البحثي وصلته بهموم المجتمع الذي ينتمي اليه وإشكالياته وذلك حتى يتمكّن من بناء معرفة تسهم في إستكشاف الذات المحلية وإتصالها أو تمايزها معرفياً عن غيرها من المعارف الأخرى.

إن الإحاطة بالإنتاج المعرفي عند سعاده وما وضعه على المستوى الفكريّ العقائديّ – يستحقّ دراسة جديّة وبحوثاً متخصصة، فسعاده بسعة معرفته ومنهجية تفكيره وإنهمامه بقضايا أمته وشعبه، كان "المعلم" بكل ما تعنيه الكلمة من قدرة على إرساء المعرفة على قواعد جديدة، وفتح آفاق معرفية لم يسبقه إليها أحد من العاملين في شؤون الفكر وقضايا الشأن الإجتماع ، وبحق يمكن إعتباره من أهمّ روّاد الحداثة المعرفية في عالمنا العربي.

في مقالتنا هذه سيقتصر بحثنا فقط على توصيف بعض الأبعاد المنهجية في البناء الفكري عند سعاده، وبالتحديد على جوانب من مساهمته في المجال السوسيولوجي.

المعرفة السوسيولوجية عند سعاده: منطلقها وغائيتها

1– إن علاقة سعاده بالسوسيولوجيا يمكن تضمينها تحت عدة مندرجات منهجية، ولعل من أهمها المندرج المنهجي لسوسيولوجيا المعرفة الذي يهتم برصد نشأة الأفكار وتطورها التاريخي والعلاقة مع " الأطر الإجتماعية " المنتجة لها أو الواقع الإجتماعي الذي يحيط بها.

فأعمال سعاده وابحاثه الفكرية كانت تستهدف السير بالمجتمع نحو حداثته، وتفكيك المعيقات المعرفية التي تحول دون ذلك، فالمعرفة والفهم كما يقول سعاده "هما الضرورة الأساسية الأولى للعمل الذي نسعى إلى تحقيقه." (المحاضرة الأولى، 1948) وهذا

التشـــديد على ضـــرورة المعرفة والفهم يأتي برأينا من وعي ســـعاده لطبيعـة المعرفـة القـائمـة في المجتمع والتي هي من نتـاج "العقـل القياســـي" العاجز عن إنتاج المعرفة من دون نموذج أصـــلي ليقيس عليه، سواء بالعودة الى نموذج ماضوي (الدين والعادات والتقاليد) أو بالإغتراب عن واقعه والقياس على نموذج مســـتحدث لواقع مختلف (تقليـد النموذج الغربي). وفي كِلا النموذجين لا يســـتطيع العقـل القياســـي أن ينتج ويســـتحدث ويبتكر معرفة تخصّـــه أو تنبعث من خصوصيات واقعه الإجتماعي.

وبناءًا عليه، فإن أول سمة من السمات التي تميّز فكر سعاده كمعلم ومفكّر وباعث للنهضـــة هو "العقل الإبتكاري" القادر على التمييز والتصـنيف بإعتماد قواعد البرهان المنطقي والعلمي في إنتاج المعرفة الناجعة لمجتمعه وفهم حقيقة هذا الواقع الإجتماعي. وتلك خاصـــية من خصائص علم الإجتماع.

ولذا نجد أن مطلب ســعاده في منهجيته الســوســيولوجية كان غائياً بـإمتيـاز، فقد اعتمد على المقاربـة النقديـة من أجل إحداث التغيير الإجتماعي الذي يســعى إليه، ومواجهة المعرفة المهيمنة في مقولات "العقل القياســـي" بنماذجه ومرجعياته التقليدية و/أو المغتربة، وذلك بإستخدام مقولات معرفية جديدة صـاغها سعاده بعقله المبتكر لإعادة تنظيم المجتمع وخدمة لمصالحه.

2- إن النهضـــة التي أعلن أنطون ســـعاده قواعد إنطلاقها وآليات اشـــتغالها في 16 تشـــرين الثاني 1932 كانت المدخل المعرفي /العملاني للســـير بـالمجتمع الى الحـداثـة والتنميـة والتغيير. وهي بمرتكزاتها الفكرية أحدثتْ تحولات ثلاث:

(أ) أعلنـت عن تحرير الفرد من ربقـة الموروث المريض وتقـاليـده البالية ليكون من ابناء الحياة المنتمي الى الفعل بما يمتلكه من قدرة وامكانية. وحررته من الأنا الفردية القاتلة ليكون منســـجماً مع حقيقة وجوده ككائن- مجتمعي.

(ب) اكّدت على فعل العقل والعقلانية في إدارة قضـــايا الإنســـان ومشـــكلاتـه، من خلال الـدرس والتمحيص والخطط والبرامج، وأســـتحدثت لأجل تحقيق تلك الإدارة مؤســـســـات هي الحزب السوري القومي الإجتماعي بإعتباره المسؤول عن تحقّق مراميها وغاياتها.

(ت) جعلت من الحرية قيمة عليا تعلو على اي قيمة أخرى، فمسارها هو بالحرية ولأجلها، فكانت وما زالت حركة تحرير للإنســـان والمجتمع والأمة.

فالعقلانية والنظام والحرية، كانت ثلاثية أقانيم الخطاب عن النهضـة/ الحداثة التي ســعى اليها ســعاده لتحرير الإنســان في مجتمعه من سـطوة الأنسـاق المعرفية التي تشّـل قدراته وتأسره في بنى إجتماعية ومعرفيـة معيقـة لنموه الإنســـاني، ولعل من دلالات معنى الحريـة، برأينا، كما أرســاها ســعاده معرفياً هي الدلالة على فعل التحّرر من الأوهام بمعرفة الحقائق الثابتة.

إن إعتماد الفهم العقلاني للواقع المجتمعي عند ســـعاده هو المرتكز المعرفي الأول في رؤيته لمعنى النهضـة، بإعتبارها نهضـة العقل أولاً وأخيراً، إذ حين يُهزم العقل أمام العصـــبيات اللاعقلانية يخضـــع المجتمع للجهل والفوضـــى وتذهب كل الجهود في ســـبيل تطويره وتقدمه هباء، وتصـــبح مواجهة الإســـتعمال الفاســـد للســـلطة أمراً مســتعصـياً لا تجدي معه الحجج والبراهين التي يقّدمها فعل التفكيك والكشـــف بإعتبارهما من أســـاليب التفكير العقلاني ومن مرتكزات المنهج النقدي في الممارسة السوسيولوجية. وبالتالي يصبح المجتمع فاقداً لحالة الوعي بالزمن وسيرورته التي تحّتم فعل التغيير.

المبحث العلمي في كتاب "نشؤ الأمم":

يقول سـعاده في توصـيفه لكتاب نشـوء الأمم: "إنّ نشـوء الأمم كتاب اجتماعيّ علميّ بحت تجنّبت فيه التّأويلات والاســـتنتاجات النّظريّة وسـائر فروع الفلسـفة، ما وجدت إلى ذلك سـبيلاً. وقد أسـندت حقائقه إلى مصـــادرها الموثوقة. واجتهدت الاجتهاد الكليّ في الوقوف على

أحذث الحقائق الفنيّة الّتي تنير داخليّةً المظاهر الاجتماعيّة وتمنع من إجراء الأحكام الاعتباطيّة عليها." (نشوء الأمم، المقدمة، 1937).

بناءًا على توصيف سعاده لكتاب نشوء الأمم، وفي محاولتنا لتحديد بعض جوانب مساهمته في المعرفة السوسيولوجية التي أوردها في كتاباته ومحاضراته يمكننا الإشارة الى النقاط الآتية:

1- إن كتاب "نشوء الأمم" يمكن اعتباره من أهّم البحوث الإجتماعية الهادفة الى إنتاج معرفة علمية ذات كفاءة ودقّة وقدرة على الكشف عن حقيقة الترابط القائم بين النشاط الإنساني (الفعل) من ناحية وجوانب البناء الإجتماعي (النسق أو النظام) من ناحية أخرى، والتأثيرات المتبادلة بينهما.
2- إن أسلوب التحليل الذي أعتمد عليه سعاده في مقاربته السوسيولوجية كان على مستوى التحليل الكلي (الماكروي /Macro) للواقع الإجتماعي.
3- في البعد التنظيري قدّم سعاده رؤيته النظرية العامة عن "التفاعل و/أو الإندماج الإجتماعي" مستخدماً اسلوب "الاستقراء التحليلي" في محاولة رصده لأشكال التنظيم الإجتماعي المهيمنة (الطائفية، القبلية على سبيل المثال) وتأثيراتها على الأنشطة الإجتماعية للأفراد والجماعات الإجتماعية في الواقع الإجتماعي عامة.
4- إن ما ورد من مباحث في كتاب نشوء الأمم يدل على محاولة علمية أصيلة لفهم وتفسير طبيعة العالم الإجتماعي في البيئة الطبيعية للأمة سورية وكيف ينعكس تنظيم المجتمع على واقع الحياة الإجتماعية والتأثير المتبادل بينهما. والمعرفة التي يقّدمها سعاده في هذا البحث السوسيولوجي مبنية على البعد الفلسفي لنظرية المعرفة عنده بما هي العلاقة بين الوجود والإدراك.

إبتكار وتحديد المفاهيم والمصطلحات:

مما لا خلاف بشأنه أن لكل حقلّ معرفي مصطلحاته ومفاهيمه الخاصة به، وما يميز سعاده في حقل المعرفة السوسيولوجية أنه أستطاع أن يبتكر مفاهيم ومصطلحات جديدة، شكّلت بمجملها شبكة متكاملة ومتجانسة في منظومته الفكرية، كانت وما تزال قادرة على فهم بنية الواقع الإجتماعي وتفسير معضلاته وإشكالياته.

إن من شروط المنهجية العلمية في البحث عامة وكذا في البحوث الإجتماعية أن يقف الباحث على تحديد المفاهيم والمصطلحات التي يستخدمها في بحثه، وغالباً ما يجد الباحث نفسه أمام مفاهيم يصعب حصرها وتحديدها لكثرة التعريفات التي أعطيت لها، ومما لا شكَّ فيه أن كل تعريف لا يتّم الإتفاق على معاييره المحدّدة لمعناه يبقى عصياً على التحديد والوضوح.

هذا الإشكال المنهجي في تحديد المفاهيم والمصطلحات إستطاع سعاده كمفكر وباحث سوسيولوجي أن يتجاوزه بحواره ومقارباته النقدية مع المفاهيم التي كانت سائدة في زمنه (مفهوم الأمة، القومية، الدين، الدولة، النهضة وغيرها من المفاهيم) وأن يصل الى ضبطها وإعادة تعريفها والفصل والتفريق في أبعادها ومضامينها لتكتسب دلالات معرفية وعلائقية تنبع من النظرة الإجتماعية الجديدة التي قدّمها سعاده.

ومن هذه المفاهيم والمصطلحات على سبيل الذكر لا الحصر:

- **الأمة:** "الأمّة جماعة من البشر تحيا حياةً موحّدة المصالح، موحّدة المصير، موحّدة العوامل النّفسيّة – الماديّة في قطر معيّن يكسبها تفاعلها معه، في مجرى التّطوّر، خصائص ومزايا تميّزها عن غيرها من الجماعات." (نشوء الأمم، ص 178)
- **المتحد الإجتماعي:** المتّحد الاجتماعيّ ليس مجرّد أوصاف أو مصالح، بل هو أمر واقع. هو جماعة من النّاس تحيا حياةً مشتركةً في بقعة معيّنة ذات حدود. (نشوء الأمم، الفصل السابع).

عودة إلى الرئيسية

- **النهضة:** "إنّ النهضة لها مدلول واضح عندنا وهو: خروجنا من التخبط والبلبلة والتفسخ الروحي بين مختلف العقائد، إلى عقيدة جلية صحيحة واضحة نشعر أنها تعبّر عن جوهر نفسيتنا وشخصيتنا القومية الاجتماعية ـ إلى نظرة جلية، قوية، إلى الحياة والعالم." (المحاضرة الأولى، 1948)
- **القومية:** "القوميّة، إذن، هي يقظة الأمّة وتنبّهها لوحدة حياتها ولشخصيّتها ومميّزاتها ولوحدة مصيرها. إنّها عصبيّة الأمّة. وقد تلتبس أحياناً بالوطنيّة الّتي هي محبّة الوطن، لأنّ الوطنيّة من القوميّة ولأن الوطن أقوى عامل من عوامل نشوء الأمّة وأهمّ عنصر من عناصرها. إنّها الوجدان العميق الحيّ الفاهم الخير العامّ، المولّد محبّة الوطن والتّعاون الدّاخليّ بالنّظر لدفع الأخطار الّتي قد تحدق بالأمّة ولتوسيع مواردها، الموجد الشّعور بوحدة المصالح الحيويّة والنّفسيّة، المريد استمرار الحياة واستجادة الحياة بالتّعصّب لهذه الحياة الجامعة الّتي يعني فلاحها فلاح المجموع وخذلانها خذلانه. (نشوء الأمم، الفصل السابع).

وفي الخلاصة التي نراها الغاية من مباحث سعاده الفكرية والعقائدية، أنه كان النبيء في أمته، وأن المواجهة الفكرية التي أقامها مع شتّى الرجعيات الفكرية، كانت في عمقها مواجهة بين حالتين متناقضتين، وبين هويتين فكريتين لكل منهما تمثّله عن الواقع الإجتماعي، وهذا ما أستوجب منه أن يضع منظومة فكرية– عقائدية لبناء "إنسان مجتمع النهضة" فكانت له جملة من المرتكزات والمفاهيم الجديدة التي أتى بها ليعيّن حدود الإختلاف ما بين حالتين: حالة إنسان ما قبل النهضة وما بعدها. معلناً الصراع الشامل بين حركة النهضة بثقافتها وقيمها وأهدافها وتنظيمها وما هو قائم ومسيّر لحركة الرجعيات الفكرية ومؤسساتها وسلطاتها. ولنا في قوله ما يستحثنا على البحث والتفكير حين يقول: "إن الحركة القومية الاجتماعية هي حركة صراع وتقدم لا حركة استسلام وقناعة." ولسنا بمتنازلين.

*أستاذ محاضر في الجامعة اللبنانية.

الوجدان القومي

إن الوجدان القومي هو أعظم ظاهرة اجتماعيّة في عصرنا، وهي الظّاهرة الّتي يصطبغ بها هذا العصر على هذه الدّرجة العالية من التّمدن. ولقد كان ظهور شخصيّة الفرد حادثاً عظيماً في ارتقاء النّفسيّة البشريّة وتطوّر الاجتماع الإنسانيّ. أمّا ظهور شخصيّة الجماعة فأعظم حوادث التّطوّر البشريّ شأناً وأبعدها نتيجة وأكثرها دقةً ولطافةً وأشدّها تعقّداً، إذ إنّ هذه الشّخصيّة مركّب اجتماعي ـــ اقتصاديّ ـــ نفسانيّ يتطلّب من الفرد أن يضيف إلى شعوره بشخصيّته شعوره بشخصيّة جماعته، أمّته، وأن يزيد على إحساسه بحاجاته إحساسه بحاجات مجتمعه وأن يجمع إلى فهمه نفسه فهمه نفسيّة متّحده الاجتماعيّ وأن يربط مصالحه بمصالح قومه وأن يشعر مع ابن مجتمعه ويهتمّ به ويودّ خيره، كما يودّ الخير لنفسه.

كلّ جماعة ترتقي إلى مرتبة الوجدان القوميّ، الشّعور بشخصيّة الجماعة، لا بدّ لإفرادها، من فهم الواقع الاجتماعيّ وظروفه وطبيعة العلاقات النّاتجة عنه. وهي هذه العلاقات الّتي تعيّن مقدار حيويّة الجماعة ومؤهّلاتها للبقاء والارتقاء، فبقاؤها غامضةً يوجد صعوبات كثيرةً تؤدّي إلى إساءة الفهم وتقوية عوامل التّصادم في المجتمع فيعرقل بعضه بعضاً ويضيّع جزءاً غير يسير من فاعليّة وحدته الحيويّة ويضعف فيه التّنبّه لمصالحه وما يحيط بها من أخطار من الخارج.

وإنّ درساً من هذا النّوع يوضح الواقع الاجتماعيّ الإنسانيّ في أطواره وظروفه وطبيعته ضروريّ لكلّ مجتمع يريد أن يحيا. ففي الدّرس تفهّم صحيح لحقائق الحياة الاجتماعيّة ومجاريها. ولا تخلو أمّة من الدّروس الاجتماعيّة العلميّة إلا وتقع في فوضى العقائد وبلبلة الأفكار.

(من مقدمة نشوء الأمم)